الفصل العاشر
الجيوبوليتكا

من الناحية التاريخية ، برز مصطلح « الجيوبوليتكا » الى الوجود قليلاً قبل الحرب العالمية الأولى ، وامتد خلال كل أوروبا الوسطى فيما بين الحربين ، ليشمل العالم تقريباً مع الحرب العالمية الثانية .

معنى الجيوبوليتكا وتحديداتها

الواقع انه ليس من تحديد واحد مقبول لدى الجميع لهذه الكلمة . فكثيراً ما تستعمل عوضاً عن عبارة « الجغرافية السياسية » (كما لدى الجغرافي الاميركي ويتلسي الذي يستعمل لفظة جيوبولتيكا كإختصار للفظتي الجغرافيا السياسية) وكالابن البكر للجغرافيا البشرية . وبالتالي فالعبارة لا تدل بالضرورة على مضمونها ، لذلك فالتحليل اليقظ هنا ضروري من أجل التمييز بين الدراسة الموضوعية لعوامل الجغرافية السياسية ومزايدات القوى السياسية . وللوهلة الأولى يبدو أن الجيوبوليتكا عبارة عن الجغرافية والسياسة معاً . وبالتالي فهي بديل للجغرافية السياسية ، إنما ذلك غير صحيح وحتى غلط كبير .

الواقع ان كل المعاني ، التي استعملت فيها كلمة الجيوبوليتكا ، تعود الى استعمال الجغرافيا كعلم في خدمة الحكومات أو الدول . وضمن هذا الإطار تستعمل عبارة الجيوبوليتكا بثلاثة معانٍ .

أولاً بمعنى مركز قوة الدولة ، والمستمد ، لحد بعيد ، من الظروف الطبيعية (٧٥) ، وكثيراً ما يأخذ بهذا المعنى بعض المتخصصين في الموضوع والمعلقون والصحفيون والكتاب .

ثانياً بمعنى مرادف للجغرافية السياسية التطبيقية (أنظر الهامش رقم (٢)) المميز عن تاريخ ومبادىء نظرية الجغرافية السياسية . ويأخذ بهذا المعنى بعض الكتاب

اليقـظين . وبهذا المعنى أيضـاً ، فهي تتعاون مـع العلوم التطبيقيـة الأخـرى ، وذلـك بأخذها بشمولية وتطبيقية الظروف الطبيعية المحيطة بالدولة ، بحيث تصل الى النتائـج عبر الدراسة الموضوعية والحيادية .

ثالثاً بمعنى السياسة الوطنية المتأثرة بالوسط الطبيعي ، بمعنى القائمة على الدراسة الجغرافية للدولة ، حيث التأكيد على المظهر الجغرافي للعلاقـات الخارجيـة ، وهذا هـو المفهوم الواسع للجيوبوليتكا . ويأخذ بهذا المعنى عدد كبـير من الكتاب والمهتمـين بهذا الموضوع . وبهذا المعنى غالباً ما يوضع البلد المعني تجاه باقي بلدان العالم ، مع التشديد على ناحية واحدة من مصالحه هي الأمن القومي أو السياسة الخارجية . وهذا هو المعنى الأكـثر ما يكـون استعمالاً وشيـوعاً ، وهـو الأوحد في أوروبـا الـوسـطى ، مهـد بـروز التسمية . وهذا المعني المحدد رغم سعة مفهومه يتجلى بأكثر ما يكـون من الوضـوح في الحركة الألمانية ، فيما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية .

إنما كل هذا ليس من العلم بشيء . والجيوبـوليتكيون الـذين أخذوا بهـذا المعنى الثالث استعملوا فقط شكل وطرق الجغرافية ليصلوا الى أن الوسط والظروف الطبيعيـة هي التي تحدد تصرفات المجموعات السياسية ، وحتى تصرفـات الكثير من السيـاسيين الـذين يجهلون ظروف وشـروط الوسط الأرضي . وذلـك على اعتبـار ان الجيوبـوليتكا تبحث العلاقات فيما بين السياسة والـرقعة الأرضية«وتهدف بصفـة خاصـة الى تحويـل المعلومات الجغرافية الى ذخيرة علمية يتزود بها قادة الدول وساستها »[1] .

هـذا ومن الخطأ اعتبـار الجيوبـوليتكا كنـظريـة وعقيـدة تجـذرت فقط في أوروبـا الوسطى أو الأرض الألمانية . فهي لم تنتشر فقط في البلدان التي تغاطفت مع السيـاسة الألمانية التوسعية ، أمثال ايطاليا واسبانيا واليابان ، على اعتبار أنه لا بد من التذكير هنا بالبريطاني مكندر حول الأراضي الداخلية ، وبإيمان الولايات المتحدة الاميركية القـوي « بشرعة القدر » (٧٦) فيما بـين ١٨٣٠ و١٨٦٠ ، والتي كانت عـلى أساس محـاكمات تعتبر نموذجاً للجيوبوليتكا .

وبالتالي ، وبعد أن رأينا المعـاني الثلاثـة التي تتلبس بها الجيـوبوليتكـا ، لنحاول تحديدهـا فنرى أنها مفهـوم سياسي كـاذب يستعمل في المصـطلحات الجغـرافية لايجـاد مرتكز لسياسة غزو واستيلاء الحكومات الرأسمالية على أراضي الغير ، وذلك بالاستناد الى الظروف الطبيعية الجغرافية وخصائص السكـان العنصريـة . وهنا فـإن المنطلقـات النـظرية لمفهـوم الجيوبـوليتكا تعتمـد على دور معـين للبيئة الجغـرافية في حيـاة المجتمع البشري وعلى فكرة عدم تساوي العروق . وتغذى هذه النظرية في الـدول الامبريـالية

---

(١) د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، مقدمة ص ١٤ .

لفرض الدعاية للسياسة التوسعية والحرب العدوانية .

حتى الآن ونحن نستعرض معنى الجيوبوليتكا من رؤيا انتقادية ، بالنسبة للمدرسة البورجوازية ، لنصل الى تحديدها الماركسي . لذلك وعملاً بالمنهج المقارن الذي دأبنا عليه لا بد لنا الآن من استعراض تحديداتها البورجوازية .

فجوهر الجيوبوليتكا هنا يكمن في تحليل العلاقات السياسية الدولية في ضوء الأوضاع الجغرافية وتركيبها . وبالتالي فالاختلاف ـ عبر الزمن ـ في الأوضاع الجغرافية ـ غير الثابتة من جراء تطور التكنيك والتكنولوجيا ـ لا بد وأن يؤدي الى التباين في الآراء الجيوبوليتيكية المتأتية عنها . ويقول هـ. ج. مكندر بهذا الصدد « لكل قرن جيوبوليتيكيته . وإلى اليوم فإن نظرتنا الى الحقائق الجغرافية ما زالت ملونة بمفاهيمنا المسبقة المستمدة من ماضي تلك الحقائق وذلك لاغراض عملية »(٢) .

نشعر على الفور ، بل نلمس لمس اليد وبشكل مباشر هنا أثر التفكير الحتمي على المسرح الجغرافي ، بالرغم من التحول الذي ينتابه ـ عبر الزمن ـ من جراء تطور التكنيك والتكنولوجيا الذي هو في جوهره رفض للتفكير الحتمي المذكور ، باستثناء نسبيته ، كما أنه قبول صارخ لطريقة انتاج الخيرات المادية (محصلة تطور التكنيك والتكنولوجيا) ، حيث يصبح المقرر قوانين التطور الاجتماعي ـ علم الاجتماع ـ وليس العلوم الطبيعية ـ الحتمية الجغرافية ـ . فإذن نحن هنا في العمق تجاه تناقض في صلب تفكير المدرسة البورجوازية .

هذا كما أن فكرة مكندر « لكل قرن « جيوبوليتيكيته » دليل على عدم علميتها والتي سوف تتأكد فيما يلي مباشرة .

فقبل القرن التاسع عشر كانت الأوضاع الجغرافية تقوم على التوزيعات المناخية وأشكال سطح الأرض الاقليمية ، في حين قامت في القرن التاسع عشر على توزع الكتل القارية . أما اليوم ، وحسب مكندر ، فإن الأوضاع والحقائق الجغرافية تقوم على الترابط بين توزع أشكال سطح الأرض وأشكال الحركة . على أن الحوار الجاري بين الاختصاصيين في الموضوع يشير الى أن هذه الأوضاع والحقائق الجغرافية سوف تقوم في القرن القادم على توزيع الكتل السكانية والتكاملات الاقتصادية والتي يعطي لها وزنها الحقيقي الكافي اليوم .

فهل أكثر من ذلك دليل على التغيّر وبالتالي استحالة القانونية وعدم علمية الجيوبوليتكا التى تبرهن على الحتمية بما هو نقيض للحتمية : طريقة انتاج الخيرات

(٢) H.J. Mackinder, Democratic Ideals and Reality, Holt, New-York 1942, p. 29

المادية . كيف تكون محاولة البرهنة على الحتمية (علوم طبيعية) بطريقة انتاج الخيرات المادية (علوم اجتماعية) .

وإذا ما تساءلنا عن هدف وغرض التحليل هنا نرى « أن التنظيم الجيوبوليتيكي قد يخدم أغراض البحث التأملي أو أغراض تخطيط السياسة والدعاية ، أو غير ذلك من أغراض السياسة العملية . مثال ذلك أعمال الجيوبوليتيكيين الألمان خلال العهد النازي »[٣] .

من المعروف أن التأمل عملية ذاتية ، ومع ذلك ليسمح لنا التأمل بهذا الرأي « التأملي » ، إنما بعين العلم الموضوعية فنرى لا علمية الجيوبوليتكا مجدداً .

وبالمناسبة فهذه اللفظة « جيوبوليتكا » « إرتبطت بالمدرسة الألمانية ونظرتها الضيقة العدوانية التوسعية . وكان صاحب التفاسير العديدة الخاصة بالتوسع الأرضي هو هوسهوفر وأتباعه في معهد ميونيخ »[٤] .

هذا وتعريف الجيوبوليتكا كما ورد في مجلة « الجيوبوليتكا » التي كان يرأس تحريرها هوسهوفر هو « بأنها العلم الذي يربط السياسة بالأرض ، فهي تعتمد بذلك على الأسس الجغرافية وخاصة الجغرافية السياسية ، فالجيوبوليتكا تمهد للعمل السياسي وتعطي الأسس اللازمة للحياة السياسية . . . الجيوبوليتكا يجب أن تكون الضمير الجغرافي للدولة »[٥] (٧٧) .

يستخلص من هذا التعريف أن دراسة الجيوبوليتكا تنير لمن يدرسها ، طريق العمل السياسي في المستقبل وتظل كصوت الضمير مذكّرة السياسيين بما يتوجب عليهم القيام به لصالح بلادهم . على أن ذلك لا يعني أنها مرادف للاستراتيجية ، « لأن الجيوبوليتكا تساعد على تشكيل أغراض العمل السياسي وفي نفس الوقت تقترح الوسائل التي يمكن بها تنفيذ هذا العمل »[٦] . في حين أن الاستراتيجية في معناها العام هي « فن استخدام القوة (the art of using Power) أو بمعنى آخر هي فن القيادة في الحرب بأجمعها ، وبذلك تتضمن الخطط العامة لاعداد المعارك ، وقد اشتقت من كلمة ستراتيجوس (Strategus) اليونانية ، بمعنى القائد ، وتقوم بوضعها القيادات العليا البرية والبحرية والجوية متعاونة . ويختلف مفهوم الاستراتيجية عن التكتيك

---

(٣) H. and M. Sprout, Geography and International Politics in Revolutionary change, Journal of Conflict, Resolution IV, N° 2, p. 152.

(٤) د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، مقدمة ص ١٤ .

(٥) J. Preston, J. Clarence, eds American Geography Inventory and Prospects, Syracuse 1954, p. 172.

(٦) د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، ص ١٥ .

(Tactics) ، الذي هو فن القيادة على أرض المعركة ذاتها . فإذا كانت الاستراتيجية هي التخطيط الذي يوضع لكسب الحرب ، فالتكتيك يوضع لخوض كل معركة على حدة ، وقد أخذت الكلمة أيضاً من كلمة تاسين اليونانية ، وهي فعل معناه يهيىء للحرب »[٧] .

هذا كما « تتغير الاستراتيجية والتكتيك ، حسب الظروف ، وان التكتيك أكثر تغيراً ومرونة ، حسب ظروف كل معركة وحالة العدو وتكتيكاته . فإذا قلنا الاستراتيجية الكوكبية ، فهي إذن فن استخدام القوة ولكن على المستوى العالمي »[٨] .

وأوتومول ، أحد كتاب معهد ميونيخ وأحد أتباع هوسهوفر يعرّفها بما يلي « تعني الجيوبولتيكا بالدولة ككائن حي ، فهي تبحث الدولة من حيث علاقتها ببيئتها ، بمجالها ، وتحاول حل جميع المشكلات الخاصة بمجالها الأرضي ، فالجيوبوليتكا إذن تعنى بدراسة المطالب المكانية للدولة ، بينما تتفحص الجغرافيا السياسية ظروف مجالها الأرضي »[٩] .

« وبوضع الجغرافيا في خدمة التوسع السياسي تهب الجيوبوليتكا نفسها لمشكلات المستقبل . وهل مطالب الدولة المكانية وجدت حلاً لها ؟ وإذا لم تكن قد وجدت حلاً فما السبيل الى تنفيذها طبقاً للظروف في الجغرافيا ؟ وفي أي اتجاه يجب أن يكون التغيير ؟ فالجيوبوليتكا نظام يزن ويقيّم موقفاً ما ، وفي النهاية يبحث عن الطريق العملي لتنفيذ السياسة »[١٠] .

أما الجغرافي الاميركي ويغرت (Weigert) فيذهب الى « أنها ـ الجيوبوليتكا ـ استعمال الأسس والمبادىء الجغرافية ، في لعبة القوة » ، بينما يعرّفها تيلور بأنها « الجغرافيا السياسية مشحونة بالعواطف ، ومن ثم تكمن فيها دعوة للعمل »[١١] .

وبالمناسبة فإن أقدم فكرة جيوبوليتيكية هي التي وردت عند أرسطو في كتابه السياسة ، حيث يرد ما معناه من أن موقع اليونان الجغرافي في الاقليم المناخي المعتدل أهّل الاغريق للسيادة العالمية على شعوب الشمال البارد والجنوب الحار . وهنا واضح

---

(٧).د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، الباب السادس ـ آراء في الاستراتيجية الكوكبية ، ص ٥١٨ .

(٨) المرجع نفسه .

(٩) نقلاً عن د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، مقدمة ص ١٥ .

(١٠) N. Pounds, Political Geography, MacGraw Hill 1963, p. 407

(١١) G.R. Taylor, Geography of a Air Age, Institute of International Affairs, London, 1954, p. 37

كل الوضوح دور الحتمية الجغرافية وتحولها الى الحتمية التاريخية في السيادة على الغير .

والتحليل الجيوبوليتيكي الذي عرّفنا هدفه وغرضه يقوم على موضوعين أساسيين هما :

- وصف الوضع الجغرافي وحقائقه كما تبدو بالارتباط بالقوى السياسية المختلفة .
- وضع ورسم الاطار المكاني الذي يحتوي على القوى السياسية (الدول) المتفاعلة المتصارعة(١٢) .

إنما تنبغي الإشارة الى أن الصعوبة في هذا التحليل ، الذي كان سهلاً في الماضي ، تكمن في كون تفاعل القوى السياسية يؤدي الى تغيّر الإطارات المكانية بشكل سريع مع الزمن بحيث يصعب تنظير محدد في التحديد الجيوبوليتيكي (٧٨) .

ففي الماضي وحتى نهاية القرن التاسع عشر كانت القوى الدولية الرئيسية عبارة عن ارتباطات بالامبراطوريات الاستعمارية الأوروبية . كما أن مراكزها كانت محددة بمنطقة ضيقة في أوروبا ودول البحر الأبيض المتوسط البحرية (٧٩) . ولذلك فالمحاولات الجيوبوليتيكية كانت سهلة وقد تزامنت أو تلاحقت بفعل الصراع الزمني . وقد كونت بمجموعها قلب العالم آنذاك أو « العالم ذي الأهمية » حسب تعبير جيمس فيرغريف ، الذي يقول «أن هذا«العالم ذا الأهمية» مكّن شعوبه وسكانه ، بحكم أوضاعه الجغرافية الخاصة من تطوير وإنماء موارد بلادهم المحلية في البدء ومن ثم التوسع في اقاليم المناطق الخارجية الأقل نمواً وتقدماً للحصول على مواردها »(١٣) (٨٠) .

أما اليوم فالكتل السكانية والتكاملات الاقتصادية الايديولوجية وطموحات الشعوب فقد كسرت الاحتكار السابق لمراكز القوى العالمية الشمالي وأخذت تظهر بوادر مراكز قوى عالمية جديدة (الهند ، الصين ، البرازيل) . وهنا بالذات يمكن التساؤل عن إمكانية قيام الشيء نفسه في العالم العربي .

مما استعرضنا من فكر جيوبوليتيكي يتضح رد التطور الى الأوضاع الجغرافية وبالتالي الى الحتمية الجغرافية التي تؤدي الى الحتمية التاريخية . على أن الحقيقة والواقع هما ، على ما يبدو لنا ، في مستوى التطور الاقتصادي لبعض المناطق ، وحيث التدرج من المتوسط الذي كان قلب العالم في التاريخ القديم الى شمالي أوروبا في التاريخ الوسيط فالحديث . وانفلاش اليوم الى بقع مختلفة من العالم ، مرده ليس الى الجغرافيا

---

(١٢) د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ٦٧ .

(١٣) J.Fairgrieve, Geography and World Power, Univ. London Press 1951, p. 257

والطبيعة بل الى التفاعل الجدلي بين الانسان والطبيعة عبر الاقتصاد المتضمن التكنولوجيا والتكنيك ، وحيث للأوضاع الجغرافية كحتمية جغرافية الدور النسبي ـ في الإبطاء أو الاسراع ـ ليس الا وكما مر معنا مراراً وتكراراً وكما أسلفنا في العرض في هذا القسم ـ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا والقسم السابق ـ الجغرافيا الاقتصادية .

والآن بعد أن تعرفنا على مفهوم الجيوبوليتكا ومن رؤيا انتقادية لنتعرف عليها في التاريخ قديمه وحديثه .

الجيوبوليتكا في التاريخ

الجيوبوليتكا في التاريخ القديم

تجلت الجيوبوليتكا آنذاك في الشرق في سياسة الوحدات الجغرافية المتكاملة مثل الأودية النهرية : وادي النيل الأدنى حيث تكونت الدولة المصرية القديمة ، وما بين النهرين حيث تكونت دول سومر وأكاد وبابل وأشور ، ووادي الأردن حيث لجأ لوط وقومه على أثر انفصالهم عن ابراهيم الخليل الذي فضل حياة التنقل والرعي بين الهضاب الخضراء .

وفي زمن هذه الدول المذكورة بقيت الجبال والصحارى مناطق متميزة كل التميّز عن الدولة ، بمعنى خارج حدود الدولة ، إنما في إطار امتداد نفوذها السياسي . وقد نتج عن ذلك اضطرار هذه الدول الى إقامة الحدود مع المعسكرات المجندة في مناطق حركة الرعاة المستمرة لاجبارهم على احترام الدولة والاقتصار على العلاقات التجارية وعند الضرورة ضربهم لاخماد ثوراتهم وكذلك غزواتهم شبه المستمرة . وبالرغم من ذلك فقد تمكّن الرعاة من اجتياح بابل وممالك العراق القديمة مراراً كما اجتاحوا مصر (الهكسوس) (٨١) .

وبناءً عليه فالصراع الدائم بين الحضر والبدو (لنتذكر هنا ابن خلدون) وما يسمى مجازاً بين الأخضر والأصفر أدى الى التغييرات المستمرة في التركيب السياسي والعسكري لدول الشرق الأوسط . ومع ذلك فقد ظهرت دول قوية في الهضاب المحيطة ، سيما في هضبة إيران (ميديا والأخمينيون) وهضبة الأناضول (الحثيون) . وللأمثلة المفصلة بالإمكان مراجعة الهامش رقم (٨٢) .

للوهلة الأولى يظهر جلياً ارتباط الجيوبوليتكا بالحتمية الجغرافية ، مع العلم أن مصطلح جيوبوليتكا لم يكن معروفاً آنذاك . إنما هذا الأمر يفترض أن لا يحجب عنا رؤية لوحة التطور الاقتصادي لهذه الحضارات الزراعية (لنتذكر هنا كتاب الحضارة والأنهر التاريخية الكبرى ؛ انظر القسم الأول : الجغرافيا الاقتصادية ـ التاريخ والنظرية والتنظيم) التي قامت على عمل الرقيق . فالنظرة المتحركة تجعلنا نوقن أن النهر هنا

أصبح بمثابة الاختزال للوسط الجغرافي وبالتالي المحرّك للحتمية الجغرافية واستنتاجاً الحتمية التاريخية . إنما كل ذلك كان ولا يزال رهناً بالتطورات التي تنتاب قوى الانتاج المحركة لعمل العبيد . وقد كان الوسط الجغرافي هنا عاملاً مساعداً ولدرجة كبيرة (النهر والماء في الزراعة) بحيث طغى على مستوى التطور الحضاري عبر قوى الانتاج ولدرجة احتجب هذا الأخير وحتميته وبقي النهر (اختزال الوسط الجغرافي) معبراً عن هذه الحتمية الجغرافية وكأنها أو كأنه المقرر لتطور هذه الحضارات وراسم استراتيجيتها السياسية والعسكرية عبر حماية الحدود بالمعسكرات من غزوات البدو وعبر مد رقعة الدولة لتجري الحرب على غير أراضيها مع الرعاة الزاحفين هرباً أمام من هم أقوى منهم في الصحارى والجبال بحثاً عن الأخضر ، بمعنى الخضرة ـ المراعي .

يتضح مما ذكرنا أن الجيوبوليتكا هنا وفي أي مكان آخر انعكاس للواقع القائم والتجارب التي مر بها ، وما محاولات التنظير له إلا انعكاساً للمصلحة العملية لمن ينظّر ضرورة بقاء هذا الواقع لخدمة مصالحه .

أما بالنسبة للاغريق فلم يشكلوا دولة بكل ما في الكلمة من معنى بل مجموعة دويلات (لنتذكر الدولة ـ المدينة) التأمت في تركيب حضاري شامل قاعدته الاقتصادية التجارة البحرية الواسعة الممتدة من البحر الأسود الى الحوضين الشرقي والغربي للبحر الأبيض المتوسط ، وتركيبه الفوقي نظام الدولة ـ المدينة بما أفرزته من حضارات متماثلة متباينة (اسبارطة ، أثينا ، ....) في شمولية الحضارة الاغريقية .

لذلك فالجيوبوليتكا الاغريقية تعكس الارتباط بالأقاليم المناخية العامة العالية ، بعكس الجيوبوليتكا الاقليمية البيئة المحددة لدول الشرق الأوسط . وهنا فأقدم ما وصل الينا هو خريطة هيكاتيوس (Hecateus) في القرن السادس ق.م. ، وقد قسّم العالم فيها الى إقليمين مناخيين : البارد حيث أوروبا وشمال آسيا والدافىء حيث آسيا وافريقيا . وقد رأى هيكاتيوس في بيئة الاقليم الدافىء الظروف الطبيعية الملائمة لسكن الانسان وتكوين القوى الدولية . أما في القرن الخامس ق.م. أيضاً فقد قسّم بارامنيدس (Paramenides) العالم الى خمسة أقاليم مناخية : إقليم شديد الحرارة وإقليمان شديداً البرودة وإقليمان معتدلان . وقد شكلت أقاليم بارامنيدس الأساس الذي أقام عليه أرسطو سياسته ، حيث رأى في الاقليم المعتدل الذي يسكنه الاغريق الاقليم الذي يحمل في حناياه بذور القوة .

وهنا فالتمايز بين الدول ـ المدن يعود لأشكال سطح الأرض المختلفة . فمثلاً فإن إقليم «أتيكا» الذي لعب دوراً مميزاً ولفترة طويلة في السياسة الاغريقية ، هذا الاقليم يعود نموه السياسي وازدهاره الحضاري للظروف الطبيعية التي أهّلته ليكون آمناً

من الغـزو . وأصبح بـالتالي إقليم اتيكـا من فقره الـطبيعي مكانـاً يُلتجأ إليـه . وذلك عكس إقليم هيلاس الغني الذي أدى غناه الى جعله مسرحـاً للصراع الـدائر ، حسب تيوسيدايدس (Thucydides) .

فكما نرى فالجيوبوليتكا واضح ارتكازها هنا عـلى الوسط الـطبيعي أو الجغرافي . إنما بالنظرة البورجوازيـة الحديثـة هذه لهـا لا تعكس قاعـدتها الاقتصـادية القـائمة عـلى التجارة البحرية التي تعوّض فقر الأقاليم وتفسر قوة الدولة ـ المدينة والدور الـذي لعبته على مسرح التاريخ السياسي في بلاد الاغريق .

وإذا ما انتقلنا الى الـرومان أول مـا يستلفت انتباهنـا الجغرافي الـروماني الشهير سترابون والقائل ان القوى العالمية مركـزة في الأقاليم القـارية الكبيـرة وليس الأطراف البحرية للقارات ، وبالتالي فأوروبا هي مركز هذه القوى . كما يرى أن الجزء المسكون من العالم يتألف من ثلاث كتل قارية هي : أوروبا وليبيا (افريقيا) وآسيا ، وان أذرع المحيط وخلجـانه وبحـاره تشكل هـذه القارات الثـلاث ، حيث القارة الأوروبيـة هي الأكثر ما يكون ملاءمة للتطور والإزدهار الحضاري .

ويبدو أن سترابون هو أول من أشار في تقسيمه الى « العـالم ذي الأهمية » والـذي حدّده بامتداد « من أعمدة هرقل (جبل طارق) الى خليج المحيط الشرقي (البنغـال) ومن ايرنا (ايرلندا) الى سيناسون (سيلان ، سريـلانكا) . . أمـا الأراضي التي تقع عـلى حدود ذلـك الاقليم فهي غير مسكـونة . . . ولا تهمّ الجغـرافي . . فالعلم بهـا لا يعطي أية معلومات يمكن الإفادة منها سياسياً . . . خاصة إذا كانت جـزراً لا يستطيـع سكانها إعاقتنا أو إفادتنا تجارياً »[١٤] .

هذا كما تنبغي الإشارة الى أن فكرة وجود أكثر من عالم مأهول بالبشر ، وبـالتالي إمكانية وجود أكثر من نواة للقوى العالمية ، لم تحظ باهتمام الاغـريق ولا الرومـان حتى أيام سترابون . على أن بذور هذه الفكرة انتشرت في الأفكار الشائعة آنذاك عن القـارة المفقودة « أطلانتس » التي ورد الحديث عنها في جمهورية أفلاطون على أنها الدولة المثالية القوية القادرة على رد اعتداء أية دولة في أية قارة . إنما الروماني ميلا (Mela) يؤكد على أن الاقليم المعتدل الجنوبي مـأهول بـالبشر . بالإضـافة الى ذلـك انتشرت فكـرة وجود أرض جنوبية هائلة المساحة («Terra Australis») . على أنه رغم كل مـا ذكرنـا بقيت أفكـار سيادة أوروبـا القاريـة قائمـة ثابتـة لا يتنازعهـا شيء من الأفكـار الأخـرى التي استعرضنا .

أما بطليموس الجغرافي الـروماني الـذائع الصيت في التـاريخ القـديم فقد رفض

(١٤) نقلا عن د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ٧٢ .

فكرة وجود محيط كامل من البحار حول الجزيرة الأرضية . كما اعتبر أن الأرض تمتد نحو الشمال والجنوب والشرق في أراض غير معروفة وحتى مجهولة . وبالنسبة للجغرافيين القدامى فتجانس المظاهر الطبيعية كان الشرط لتحديد الاقليم الذي يتميز عن غيره بمظاهر متباينة عن مظاهره . فهيرودوت قسّم آسيا الى أشباه جزر واستعمل الخلجان حدوداً ، في حين فضل سترابون استعمال الفواصل الأرضية حدوداً كبرزخ السويس بين آسيا وليبيا (افريقيا) وجبال طوروس بين آسيا وأوروبا .

على أن الصورة الجيوبوليتيكية الفريدة للامبراطورية الرومانية ارتسمت بأفكار الجغرافي الروماني الكبير بليني (Pliny) الذي استعمل طرق الحركة البرية والبحرية لتحديدها . فقد أوضح أن نفوذ روما الاقليمي يمتد في اتجاهات مختلفة حول البحر الأبيض المتوسط وبشكل يتوافق مع امتداد شبكة الطرق الرومانية . كما أشار الى انتهاء هذه الطرق أحياناً الى عوائق نهرية كالراين والدانوب والفرات والنيل . وبناء عليه تصبح نهايات الطرق الرومانية الإطار المحدد للدولة في أقاصي أطرافها . هذا بالإضافة الى الإطار الداخلي المتمثل في طرق الملاحة البحرية في المتوسط الذي سيطرت عليه روما سيطرة كاملة طوال أيام مجدها .

يشعر المرء هنا بوضوح بأثر الحتمية في رسم الصورة الجيوبوليتيكية للدولة والمستمدة من الامتداد المساحي الأرضي للظروف الطبيعية وخصوصاً من شبكة الطرق البرية والبحرية ودورها في تماسك الدولة وقوتها . هذه الشبكة من الطرق استحدثت لأجل هذا التماسك في الدولة وشد لحمة أجزائها وتسهيل وعقلنة إدارتها ، حيث تضاف إذن الإمكانية الجغرافية ، وحيث يتبدى الفعل وردة الفعل من جراء ذلك فيما بين الطبيعة والإنسان لدرجة رؤية الحقيقة المتجلية في القاعدة الاقتصادية الديناميكية المتطورة لروما ـ فالامبراطورية الشاسعة التي اقتضت ضرورة بناء الطرق البرية والأخذ بالبحرية لتأمين استمرارية قوة روما الاقتصادية التي مدتها بالقوة العسكرية لتأمين استمرارية هذه القوة الاقتصادية (العبيد قوة عمل نظام الرق فرضت استمرارية الحروب) .

وبالتالي فالحقيقة ان أفكار بليني لم ترسم الصورة الجيوبوليتيكية للامبراطورية الرومانية بقدر ما هي مستمدة من واقع الحال الذي انتهت اليه هذه الامبراطورية . وقد فسرت هذه الأفكار في الحقيقة حديثاً من قبل المفكرين الجيوبوليتيكيين البورجوازيين لتنظير وتبرير الواقع القائم للامبراطورية الرومانية . هذا الواقع المتوجب الدفاع عنه لابقائه على ما هو عليه لأنه امتداد للحتمية الجغرافية عبر الحتمية التاريخية في السياسة فنصبح أمام الجيوبوليتكا ، التي يراد لها ، من قبل منظريها ، البورجوازيين بالطبع ، أن تكون أبدية وخالدة ، بالرغم من التطورات التي تنتابها، لاعطائها الصبغة

العلمية، فالبرهنة على أنها برزت في أعماق التاريخ القديم لتفسير الواقع التاريخي القائم ، وتقوم بهذا الدور اليوم في محاولة للبرهنة على صحتها التي دحضناها مراراً وبرهنا على عدم علميتها وحتى كذبها الفاضح .

الجيوبوليتكا في التاريخ الوسيط

في الأعصر الاسلامية تركز اهتمام الجغرافيين العرب وبالأساس على الجغرافيا الوصفية والاقليمية والفلكية وعلى رسم الخرائط . على أنه في إطار الجغرافيا الاقليمية لكل دولة أو اقليم على حدة ظهرت معالجة موضوعات الجغرافيا السياسية على مستويات متباينة . وبوجه عام فإن النظرة الجيوبوليتيكية العربية الاسلامية قسّمت العالم المأهول ، الذي تجلى لها في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، الى قسمين رئيسيين هما : أوروبا في الشمال وأفريقيا وآسيا في الجنوب . وفي الواقع فإن النظرة العربية هنا لم تكن لتميّز بين افريقيا وآسيا بل اعتبرتها كتلة خارجة واحدة . ورأت هذه النظرة في البحرين الأسود والأبيض المتوسط الفاصل بين القسمين المذكورين آنفاً - أوروبا وافريقيا مع آسيا - واللذين شبه يتصلان في مضيق جبل طارق وفي بحر مرمرة . وقد تركز وتأكد هذا التقسيم من جراء توافقه مع الانقسام الديني الحضاري . فإلى الجنوب وشرقي البحر - الأسود والأبيض - الفاصل المذكور. يوجد العالم الاسلامي العربي الطابع بشكل عام والى شماله يوجد العالم المسيحي الأوروبي باستثناء الخلافة الاسلامية في الأندلس (إسبانيا في أوروبا) .

وبالتالي فالأفكار الجيوبوليتيكية العربية رمت ، وبشكل عام ، الى السيطرة القارية السياسية وفي الوقت نفسه السيطرة التجارية على هوامش البلدان القارية المسيطر عليها (على غرار ما نُظّر له بالنسبة لروسيا لدى مكندر فيما بعد إنما برؤيا عكسية تتماشى ومصلحة بريطانيا) . وقد تجلى هذا الأمر بالسيطرة التجارية البحرية والبرية التي امتدت الى المحيط الهندي وشرق آسيا ووسطها و افريقيا الزنجية . وفي ما ذكرنا صورة الخلاف بين الامبراطورية الاسلامية في أوجها والامبراطورية الرومانية في أوجها ، والذي يتركز في موقع القلب القاري وتوجهه الى الهوامش على البحار . فروما ركزت على القارة الأوروبية والبحر المتوسط في حين ركزت بغداد على العالم الأفرو آسيوي والمحيط الهندي . وبالتالي فالقاعدة الاسلامية كبيرة وتمتد على مساحة أرضية أكبر تشمل مسطحاً أرضياً وبحرياً واسعاً بالمقارنة مع روما (٨٣) .

الواقع ان هذا التفسير لما انتهى اليه كل من الامبراطورية الاسلامية والرومانية والمقارنة بينهما ليس سوى النقل للواقع التاريخي وإلباسه لباس الجيوبوليتكا على ما يبدو لنا . وذلك للبرهنة على صحة الجيوبوليتكا في التاريخ الحديث ، عبر التكرار لواقعها التاريخي في الزمان والمكان كدليل لصحتها العلمية . ولن نكرر هنا دحضنا

للجيوبوليتكا ومنافاتها للعلم والذي أشرنا اليه فيما سلف تكراراً . بكلمة تُنظّر الجيوبوليتكا للواقع القائم أو المرتجى قيامه أو عدمه والدفاع عنه والاحتفاظ به تبعاً لانتماء المنظر لها . على أن التاريخ يشير الى استحالة الديمومة والخلود لأي دولة كانت وبالتالي فالجيوبوليتكا تفتقد « علميتها » بمحاولتها فرض الاستاتيكية لما هو ديناميكية في التاريخ وبالتالي متحرك في الجغرافيا استناداً الى ترابط الزمان بالمكان ولتحريك الزمان بتاريخيته وتوزع الدول المكاني في جغرافيتها .

إنما على أثر الكشوفات الجغرافية الكبرى ، التي تأتت عن الكشوفات البحرية الكبرى (كولومبس ، غاما ، ماجلان) تغيرت وبشكل جذري النظرة الجيوبوليتيكية القارية ، التي كانت موجهة نحو الحضارات العليا في الشرق الأوسط والبحر المتوسط والعالم الاسلامي ، وتحول مركز القوى الى أقاليم الهامش الأوروبي الغربي في البرتغال واسبانيا وهولندا وفرنسا وبريطانيا . وذلك لاتضاح سهولة ومرونة الطرق البحرية البعيدة عن التصارع العسكري والسياسي للدول القارية الاسلامية والبعيدة كذلك عن صعوبات النقل البري . وبناء عليه تطورت السيطرة البحرية وتأثرت بها بشكل شبه كلي الأفكار الجيوبوليتيكية على أثر نجاح تشكل الامبراطوريات الاستعمارية الواسعة .

الواقع ان الجيوبوليتيكيين يبحثون في ما انتهى اليه واقع الحال لينظروه كضرورة غير مفتشين ، وعن وعي كلي ، عن الاسباب التي أدت إليه ، والمركّزة في تطور قوى الانتاج المتأتي عن تطور التكنيك والتكنولوجيا في نهاية المطاف . فالواقع أن الانتهاء الى موضوع الامبراطوريات الاستعمارية هنا عبر بلدان الاطراف ما هو إلا محاولة لتجميد واقع الاستعمار الذي شمل العالم على أثر الحرب العالمية الأولى . وما الجيوبوليتكا في النهاية ، منذ البدء حتى اليوم ، في محاولة فلشها التاريخي من الحاضر الى الماضي ، إلا التبرير عبر الحتمية الجغرافية وبواسطة الحتمية التاريخية ، التبرير للاستيلاء على أراضي الغير المسيطر عليها ، بواسطة الأشكال الجغرافية للمسطح الأرضي ، في حين أن المحرك للأمر يكمن في تطور قوى الانتاج وكما ذكرنا والذي يحرّك للبحث عن الاسواق والسيطرة عليها بالاستيلاء على أراضي الغير (المستعمرات) ، وذلك قديماً وحديثاً .

الجيوبوليتكا في التاريخ الحديث

أول من اهتم من المحدثين بهذا الموضوع هو الفيلسوف الألماني « ايمانويل كانت » . فقد عالج هذا الموضوع برؤيا « الدولة العالمية » التي تجلت له كأمر قائم على طبيعة الأشياء ، مستنداً الى الأمور التالية :

أولاً ـ ان الطبيعة قد حبت الانسان بإمكانية السكن والعيش في كل أجزاء العالم ،

ثانياً ـ إن الطبيعة قد بعثرت الانسان نتيجة استمرار الحروب مما أدى الى سكن الناس في معظم الجهات القابلة للسكن ،

ثالثاً ـ ان العاملين السابقين معاً قد أجبرا الانسان على أن ينهي حروبه دوماً بعقد صلح وإقامة السلام(١٥) .

كما رأى كانت في رغبة الدول الأوروبية إخضاع بعضها البعض السبب للحروب الدائمة فيما بينها . وبالتالي فإيجاد إتحاد اوروبي من دول مستقلة حرّة أمر يمكن أن يؤدي الى السلام في العالم ، على اعتبار أن أوروبا أيام « كانت » كانت تسيطر على أقدار العالم السياسية .

لا بد لنا هنا من وضع النقاط على الحروف بالنسبة لرؤيا كانت الجيوبوليتيكية هذه .

فبالنسبة للعامل الأول فالواقع أن الطبيعة لم تحب الانسان بإمكانية السكن والعيش في كل أجزاء العالم ، بل تعاطيه الجدلي معها (عكس رؤيا الحتمية الجغرافية) مكّنه ، عبر تطور طريقة انتاج الخيرات المادية ، ومع الزمن ، من السكن والعيش في كل أجزاء العالم ، وحتى تقريباً ، والتي أصبحت شبه منتوج اجتماعي من جراء تحولها من وسط طبيعي الى وسط جغرافي .

هذا ويبدو لنا أن في العامل الثاني وخصوصاً في عبارة « . . . مما أدى إلى سكن الناس في معظم الجهات القابلة للسكن » ، حيث التخصيص ، تناقضاً مع العامل ، الأول ، حيث الاطلاق الذي انتقدنا .

أما العامل الثالث فلا نرى فيه حتمية الارتباط التي رآها كانت بالعاملين الأول والثاني والمؤدية الى الصلح والسلام . نقول هذا سيما وأن الحروب تاريخياً بقيت مستمرة بعد كانت ولا تزال حتى اليوم وان تحولت الى محلية أو إقليمية ولم تعد عالمية من جراء توازن الرعب وخصوصاً النووي بين الجبارين .

الواقع بالنسبة للاتحاد الأوروبي انه كان بمثابة فكرة أيام كانت وفكرة مستقبلية ورؤيا رائدة ، لكن الظروف لامكانية قيامها لم تكن متوفرة ، ونعني بذلك الظروف الاقتصادية (وهذا ما يفسر فشل نابليون إقامة هكذا اتحاد أوروبي) . فتطور قوى الانتاج لم يكن بعد قد بلغ الحد الذي يؤدي بها الى تخطي الحدود القومية والانتقال الى الكونية عبر الشركات المتعددة الجنسيات والمشاريع المشتركة والأسواق الاقليمية الكبرى (السوق الأوروبية المشتركة) وغيرها مما يشكل الأساس والقاعدة الاقتصادية الجديدة

---

(١٥) نقلاً عن د. محمد رياض ، الأصول الدائمة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتيكا ، ص ٧٥

لهكذا اتحاد ، أصبح واقعاً قائماً اليوم في أوروبا (البرلمان الأوروبي) من جراء تشكيل هكذا قاعدة لم تكن متوفرة أيام كانت ونابليون وتوفرت اليوم : السوق الأوروبية المشتركة والمشاريع المختلفة الثنائية والمتعددة الأطراف في إطارها .

على أن مؤسسي الجغرافيا الحديثة لم يكونوا من مؤيدي آراء كانت وأكدوا على مفهوم الاقليمية المرتبطة بالأنماط أو الأشكال الاقليمية . فقد أصبحت هذه الأفكار الاقليمية الأساس الذي قامت عليه الجيوبولتيكا في التاريخ الحديث .

وتقوم هذه الأشكال الاقليمية على أشكال توزيعات اليابس والماء وخطوط فصل هذه التوزيعات فيما بينها . فمثلاً ترى إحدى هذه الأفكار الجيوبوليتيكية أنه يتوجب التركيز على الكتلة القارية المؤلفة من أوروبا وآسيا وافريقيا معاً ، حيث يوجد ٥٦٪ من مجموع مساحة اليابس العالمي و٨٤٪ من السكان[١٦] . وهذه الكتلة القارية الكبيرة والمؤلفة في واقع الحال من القارات الثلاث المذكورة ـ أوروبا، آسيا، افريقيا ـ كما رأينا محاطة بمسطحات مائية هائلة تبلغ ثلاثة أضعاف مساحة اليابس . وهذه هي فكرة « الجزيرة العالمية » ، التي قال بها مكندر ، وهي ترتبط بأكبر مساحة من الأرض اليابسة التي تشكل مركز ثقلها .

هذا في حين ترى أفكار جيوبوليتيكية أخرى التركيز على النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، حيث أوروآسيا وشمال افريقيا وأميركا الشمالية والوسطى ، والتي تشكل ٦٠٪ من مساحة اليابس العالمي و٤٠٪ من السكان[١٧] . ومحور هذه الفكرة الجيوبوليتيكية هو مسطحات الماء والهواء التي تربط أوروآسيا بأميركا .

بالإضافة الى ما ذكرنا هناك الأفكار الجيوبوليتيكية التي تركز على المحيط الأطلسي كالرابط بين الاميركيتين وأوروبا وافريقيا معاً . فهذه القارات الأربع والمحيط الذي يربط بينها تشكل التكتل الأرضي ذا الأهمية في العالم ، استناداً الى كثافة العلاقات التجارية وخطوط المواصلات البحرية والجوية المركزة في المحيط الأطلسي بالمقارنة مع بقية المحيطات .

وقد نتج عن هذه الأفكار الجيوبوليتيكية نظريات استراتيجية متعددة وحتى متباينة أحياناً ، منها استراتيجية الجزيرة العالمية التي تؤكد أن من يحكم أوروآسيا (حيث قلب العالم) قد يحكم العالم . هذا في حين هناك نظرية استراتيجية مرتبطة بالجزيرة العالمية إنما مغايرة كلياً لفكرة قلب العالم التي ذكرنا الآن ، وهي تقوم على التحكم بأطراف الجزيرة العالمية المتمثلة في أشباه الجزر الضخمة حول أوروآسيا :

---

(١٦) د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ٧٦ .

(١٧) المرجع نفسه .

أوروبا (كشبه جزيرة لآسيا) والشرق الأوسط والهند وجنوب شرقي آسيا . فمن يحكم هذه الأطراف قد يحكم العالم . وهناك نظرية تقول بأن النفوذ العالمي قد يقوم على حكم العالم القطبي . بالإضافة الى ما ذكرنا هناك نظرية توفيقية ترى إمكانية قيام تعادل في ميزان القوى العالمية بين قوتين أو ثلاث على المستوى العالمي .

بالرغم من كل ما ذكرنا الآن يبقى القاسم المشترك الأكبر بين النظريات الاستراتيجية للأفكار الجيوبوليتيكية الارتباط النسبي بالأوضاع الجغرافية والارتباط المطلق المصيري والمقرر بطريقة انتاج الخيرات المادية ، حيث التكنيك وتطوره عبر الزمن .

وكل هذه النظريات الحديثة تعود في أصولها الى القرن الماضي الى الجغرافيا الحديثة ، التي تأسست على أيدي كل من الكسندرفون همبولدت وكارل ريتر ، واللذين قالا بالعلاقات المتبادلة بين الانسان والدولة والوسط الطبيعي ..

وأفكار ريتر في الموضوع تطورت وانتهت الى التقسيمات الاقليمية داخل الكرة الأرضية الموحدة . فقد قسم في البدء العالم الى قسمين أساسيين هما الأرض (القارات) والماء (المحيطات) والحدود بينهما دائرة عظمى تمر من بيرو الى جنوب آسيا . ثم قسم اليابس الى قسمين : العالم القديم والعالم الجديد . ويتميز العالم القديم بالتشابه المناخي الكبير لامتداده الشاسع مع درجات الطول من الشرق الى الغرب على طول دوائر عرضية محددة . هذا في حين أن العالم الجديد تظهر فيه التباينات المفاجئة الكثيرة لامتداده الهائل وشبه الكلي على الكرة الأرضية من الشمال الى الجنوب(١٨) .

وبناء عليه يعتبر ريتر القارات بمجموعها وحدة طبيعية كاملة ، إنما يصل إلى أقسام متميزة وكل منها لها شخصيتها داخل كل قارة . كما قسم ريتر المحيطات الى حوضين : الأطلسي والباسيفيكي . وقد لقيت آراء ريتر التفسير الجيد في أواسط القرن التاسع عشر على يد الجغرافي الفرنسي أرنولد غويو الذي إستخلص منها أن العالم القديم هو عالم جبال وهضاب وسهول ، إنما محدودة الاستغلال ، في حين أن العالم الجديد يتميز بسهوله الغنية التي تشكل ثروته . وفي مجال المفاضلة بين المحيطين ـ الأطلسي والباسيفيكي رأى الأول أكثر ملاحة ومليئاً بالبحار الداخلية وانحدارات سواحله هينة ، في حين الثاني أكثر المحيطات اتساعاً وانحدارات سواحله سريعة ووعرة(١٩) .

---

(١٨) د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسيه والجيوبوليتكا ص ٧٧ ـ ٧٨ .

(١٩) أنظر A. Guyot, The Earth and Man, trans. c.c Felton , New-York, 1889, p. 331

لا نزال ، فيما استعرضنا ما لدى ريتر وغويو ، في إطار الأوضاع الجغرافية التي جعلت هذا الأخير ـ غويو أول جغرافي يؤكد على أهمية الموقع المركزي للقارة الأوروبية داخل المحيط « الذي هو في الحقيقة الطريق الرئيسي في العالم » . وهنا بالإمكان القول أن أفكار غويو الجيوبوليتيكية استمدت من نظرة ريتر الى القارات على أنها كل طبيعي متكامل . كذلك إحدى أهم أفكار غويو في الموضوع هي أن زعامة العالم آخذة في الانتقال من أوروبا الى أميركا الشمالية ، أما الثانية فهي ان القارات تنتظم في ثلاث مجموعات مزدوجة ، واحدة الى الشمال والثانية في جنوبها . وان الشمالية تغطي الجنوبية حضارتها ومدنيتها (لنتذكر حوار الشمال والجنوب اليوم) . كما يعتقد غويو بأن آسيا كانت مهد الحضارة التي نضجت في أوروبا فيما بعد وان أميركا هي نقطة النهاية العظمى لهذه العملية الحضارية . بالإضافة الى ذلك فقد أعرب غويو وبأسلوب صوفي غامض عن اعتقاده بأن وحدة السلالة وروابط الديانة المسيحية والقرب المكاني هي الأسباب التي تجذب وتصوغ وحدة القارات الشمالية .

كما يتضح فنحن هنا تجاه انتقال حضاري عبر الأطلسي مرده ليس الربط لهذا المحيط بين أوروبا وأميركا الشمالية بل الانتقال لهذه الحضارة التي نمت بفضل تطور قوى الانتاج الهائل ، عبر الحاجة لمالكيها للمواد الأولية من جهة وعبر الحاجة الى الهجرة للفائض من قوة العمل فيها من جهة ثانية . وقد لاقى كلا الحاجتين الأرض البكر العذراء ، فنبت عليها من تلاقي السواعد الفتية بالأدمغة المبدعة في العالم الجديد ما طور الحضارة الأوروبية المهاجرة الى قمة مادية انتاجية أين منه ما وصلت اليه في مهدها في أوروبا ، إنما بمزيد الأسف فقد فقدت هذه الحضارة في رحلتها عبر الأطلسي أصالتها ونبالتها وإنسانيتها وكل ما أفرزته المقدمات الفكرية للثورة الفرنسية . وفي محطتها الأخيرة ، على ما يبدو ، أميركا الشمالية ، فقد أفرزت السيطرة المادية على العالم ، على غرار ما جرى في أوروبا عبر استعمارها لآسيا وافريقيا ، والتي شكلت النظرة الجيوبوليتيكية المنسجمة كل الانسجام مع الفلسفة البرغماتية التي ترعرعت أيضاً في أميركا الشمالية . أما طريقة الحياة الاميركية ـ كحضارة مفرغة من مضمونها الثقافي والانساني لدرجة التفسخ والانحلال ـ التي تغزو العالم فهي سلعة من السلع التي لاجلها ولأجل انقاذ اقتصادها تؤمن وتعمل أميركا وعلى الضبط الولايات المتحدة الاميركية بالامبريالية الاقتصادية وحتى الاستعمار الجديد الى جانب القديم .

القوى القارية في الجيوبوليتكا

مكندر والجزيرة العالمية

ف. راتزل ، الجغرافي الألماني ، هو من مؤسسي الجغرافيا السياسية ، كما رأينا ، وكذلك الجيوبوليتكا ، حيث تنعدم الحدود بينها ـ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ـ

لدرجة التساوي ، وحيث عالج المكان والموقع معالجة أصولية مقارنة بين الدول (أنظر الفصل الثالث : تاريخ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا) منتهياً الى وجود الروابط القوية بين القوى القارية والقوى السياسية .

هذا وتنبغي الاشارة الى أن راتزل عندما كان يكتب ، في القرن الماضي ، كان متأثراً بالجو العلمي المفعم ، آنذاك ، بطغيان نظرية دارون التطورية في العلوم الطبيعية ، الأمر الذي جعله يرى في الجغرافيا السياسية فرعاً من فروع العلوم الطبيعية ؛ كما أسس فكرة المكان على أنها عنصر مؤثر في الصفات السياسية للجماعة أو الجماعات التي تسكن هذا المكان وفي الوقت نفسه هي تؤثر فيه . أما بالنسبة للموقع فرأى فيه الملوّن للمكان بحيث يعطيه الصبغة التي تجعله دائم الاختلاف عن غيره من الأماكن ؛ الأمر الذي يؤدي الى جعل الدولة ، كل دولة مميزة عن غيرها من الدول بهذه الصبغة المميزة .

وأفكار راتزل النطورية تجلت بوضوح كلي في القوانين السياسية للدولة ، والتي سبق وأتينا على ذكرها (راجع الفصل الثالث : تاريخ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا) ، حيث تتحدد أماكن الدول ومواقع هذه الأماكن . ومنبع هذه القوانين يكمن في قناعة راتزل أن الدولة كائن عضوي : كينونة بيولوجية حدودها الأرض وكذلك كينونة معنوية وخلقية مستمدة من ارتباط الإنسان بأرض يعمل فيها ويحصل على حاجاته للعيش والتعايش من مصادرها المختلفة ، بحيث يحتاج الى حمايتها وحماية حياته .

وبالإجمال فقوانين راتزل السبعة للدولة وبالأحرى للنمو الأرضي للدولة ترتبط بالمكان والموقع ، فحسب رأيه كل نشاطات الإنسان وصفاته وكذلك كثافة السكان في الدولة ، كل ذلك ليس سوى نتاج الموقع والحجم والبيئة الطبيعية والحدود ، وفي الوقت نفسه كل ذلك نتاج المكان .

وتنبغي الاشارة بهذه المناسبة الى اهتمام راتزل الخاص بالحدود السياسية التي اعتبرها العضو الخارجي للدولة (كالجلد بالنسبة لجسم الانسان) ، وبذلك تمد الباحث بالدليل والبرهان على مراحل تطورها نمواً أو ذبولاً وبالتالي قوتها أو ضعفها .

ولعل أهم ما انتهى اليه راتزل هو الروابط التي رآها بين القوى القارية والقوى السياسية . وبالمناسبة فقد ظهر لراتزل كتاب في سنة ١٩٠٠ كان التركيز فيه على دور أهمية البحر كعنصر موحّد عظيم في الحضارة البشرية . كما رأى راتزل في هذا الكتاب في المحيط الهادىء « محيط المستقبل » ، حيث بعض الدول المطلّة عليه ستصبح من القوى العالمية . وقد أسهب راتزل في هذا الكتاب في الحديث عن الصراع للسيطرة على العالم فيما بين القوى القارية والقوى البحرية واستنتج أن العنصر النهائي في هذا

الصراع سيكون بجانب القوى القارية[٢٠] . وذلك استنادا الى كون المساحة الكبيرة فيها تتيح الموارد المتعددة وبكميات كبيرة ، الأمر الذي يؤدي الى تدعيم القوى السياسية . وهذه المساحات الكبيرة لا تتوفر إلا في الدول القارية ذات الامتدادات الشاسعة مثل الولايات المتحدة الاميركية والاتحاد السوفييتي واستراليا وكندا والبرازيل وغيرها بالمقارنة مع دول أوروبا القديمة ذات المساحة الصغيرة والموارد المحدودة .

لا حاجة بنا هنا لتكرار ما سقناه سابقاً (أنظر الفصل الثالث : تاريخ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا) عن النظرة الحتمية ـ جغرافية كانت أم تاريخية ـ لراتزل بالنسبة للدولة والمغايرة لواقع حالها المستمد من العلوم الاجتماعية المقررة لنشوئها ، عبر ظهور الطبقات في المجتمع ، وتطورها ، عبر طريقة انتاج الخيرات المادية في هذا المجتمع . وذلك لأن الوسط الجغرافي أو البيئة بإمكانه أن يبطىء أو يسرع تطور الدولة كنهاية حضارية ليس إلا . وبالتالي فنظرة راتزل ، رغماً عن أنه مؤسس الجغرافيا الانتروبولوجية غير اجتماعية في نهاية المطاف (يراجع بهذا الخصوص أيضاً الفصل الثالث : تاريخ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا) ولا ترى انبثاق الدولة من ظهور الطبقات في المجتمع والمتأتي بدوره عن ظهور الملكية الخاصة .

على أنه لألفرد مكندر (١٨٦١ ـ ١٩٤٧) يعود فضل الربط بين المساحات الضخمة والموقع المكاني في جزء من قارة واحدة يعطيها المكانة الأولى في العالم ، الأمر الذي جعل اسمه يرتبط بنظرية « قلب العالم » (Heart land) . هذه النظرية التي استقطبت اهتمام الباحثين طوال النصف الأول من القرن الذي نعيش ـ القرن العشرين ، فنشر العديد من الكتب والأبحاث والدراسات حولها . كما كان لها التأثير الواضح كل الوضوح على الجيوبوليتكا الألمانية ، التي أخذت بها محوّرة لتنفيذها لصالح ألمانيا .

وكان مكندر واسع المعرفة . فقد درس البيولوجيا والتاريخ والقانون والطوبوغرافيا والاستراتيجية والجغرافيا ، الأمر الذي يفسر اهتمامه بالتشابه في التاريخ وكذلك البيئة ، والذي انتهى به الى الجغرافيا وأخيراً الى العمل في الدبلوماسية . ويبدو لنا أن المصادر الجذرية في تفكير مكندر تقوم على اعتقاده بأن الإنسان يمسك المبادأة وليست قوى الطبيعية ، وان قوى الطبيعة هي التي تتحكم في المبادآت الانسانية الى حد كبير .

هنا يبدو لنا مكندر من أنصار الامكانية الجغرافية عندما يقول « ان الانسان يمسك بالمبادأة وليست قوى الطبيعة » ، في حين أنه يصبح من أنصار الحتمية الجغرافية

---

(٢٠) د. فتحي محمد أبو عيانة : دراسات في الجغرافيا السياسية ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

عندما يقول «إن قوى الطبيعة هي التي تتحكم في المبادآت الانسانية الى حد كبير» . إذن هو من أنصار الحتمية ولا يرى العلاقة الجدلية بين الطبيعة والانسان عبر الاقتصاد . وهذا ما يفسر موقفه الاستاتيكي من نظرية الهرتلاند ، بالرغم من التحرك الذي انتابها في مساحة قلب العالم ، وعلى يديه بالذات ، على اعتبار أن استاتيكيته تتجلى في الإنعكاسات السياسية النظرية ، في المواقف الاستراتيجية المتأتية عنها وخصوصاً بالنسبة لمصلحة بريطانيا . (أنظر الخريطة رقم ـ ٢ ـ وكتابيه في الموضوع[٢١]) .

فهذه النظرية ـ الهرتلاند « أخذ بها مكندر سنة ١٩٠٤ ، حيث تبدى له أن الجزء الداخلي من أوروآسيا (أوروبا وآسيا) (٨٤) يشكل مركز العالم سياسياً (أنظر الخرائط رقم ـ٢ـ و ـ٣ـ) . وهنا فقد حذر من أن من يسيطر على قلب أكبر كتلة أرضية في العالم يحصل على الأسس التي تمكنه من السيطرة على العالم . إذن فالقوة التي يصبح بإمكانها أن تحكم قلب العالم ـ روسيا وألمانيا والصين ـ يصبح بإمكانها أن تنافس وبنجاح كبير الدول البحرية والتغلب عليها . وعلى أثر مضي إحدى عشرة سنة على هذه المحاكمات الميكانيكية لمكندر أتى جيمس فيرغريف ليؤكد في كتاب « الجغرافيا والسيطرة العالمية » (١٩١٥) بشدة على أن الصين في موقع ممتاز للسيطرة على داخلية أوروآسيا .

الواقع أن التغيّر في حدود مساحة قلب العالم بالإضافة الى نظرته للعالم ككل من حسنات مكندر النسبية التي أشرنا اليها . فهو كجغرافي كان على معرفة تامة بأن استغلال الانسان لمحيطه الطبيعي دائم التغيّر وان المحيط الطبيعي يتغير ولو ببطء كبير . ففي ما بين عام ١٩٠٤ وعام ١٩١٩ (أنظر الخريطة رقم ـ ٢) أضاف مكندر الى قلب العالم التيبت وأعالي أنهار الصين والهند ، وذلك من منغوليا والهند . كما أضاف أيضاً أوروبا الشرقية والوسطى لأهميتها الإستراتيجية (٨٥) . وقد حدث ذلك لديه نتيجة تغير وسائل النقل وتطورها وأيضاً تطور النمو السكاني والصناعي .

ومن جراء النمو في المواصلات والسكان والصناعة تبدى لمكندر أن بحر البلطيق وكذلك البحر الأسود قد أصبحا جزءاً من قلب العالم . كما أن هذين البحرين مع أحواضهما النهرية مما يكون جزءاً من السهول الأوروآسيوية الكبرى .

وعلى أثر هذه الإضافات في بحثه عام ١٩١٩ أعلن مكندر «إن من يحكم شرق أوروبا يحكم الهرتلاند ومن يحكم الهرتلاند يتحكم في الجزيرة العالمية ومن يحكم

---

(٢١) – H. Mackinder, Democratic Ideals and Reality, New -York 1919, revised 1942.

– H. Mackinder, the Geographical Pivot of History, Geog-Journa' XXIII, 1904.

كما تنبغي الإشارة الى أن مكندر لم يستعمل مصطلح « الهرتلاند » إنما تكلم عن « سرة العالم » أو مركزه في حين أن فضل استخدام « مصطلح الهرتلاند » يعود الى جيمس فريغريف عام ١٩١٥ .

الخريطة رقم - ٢ -

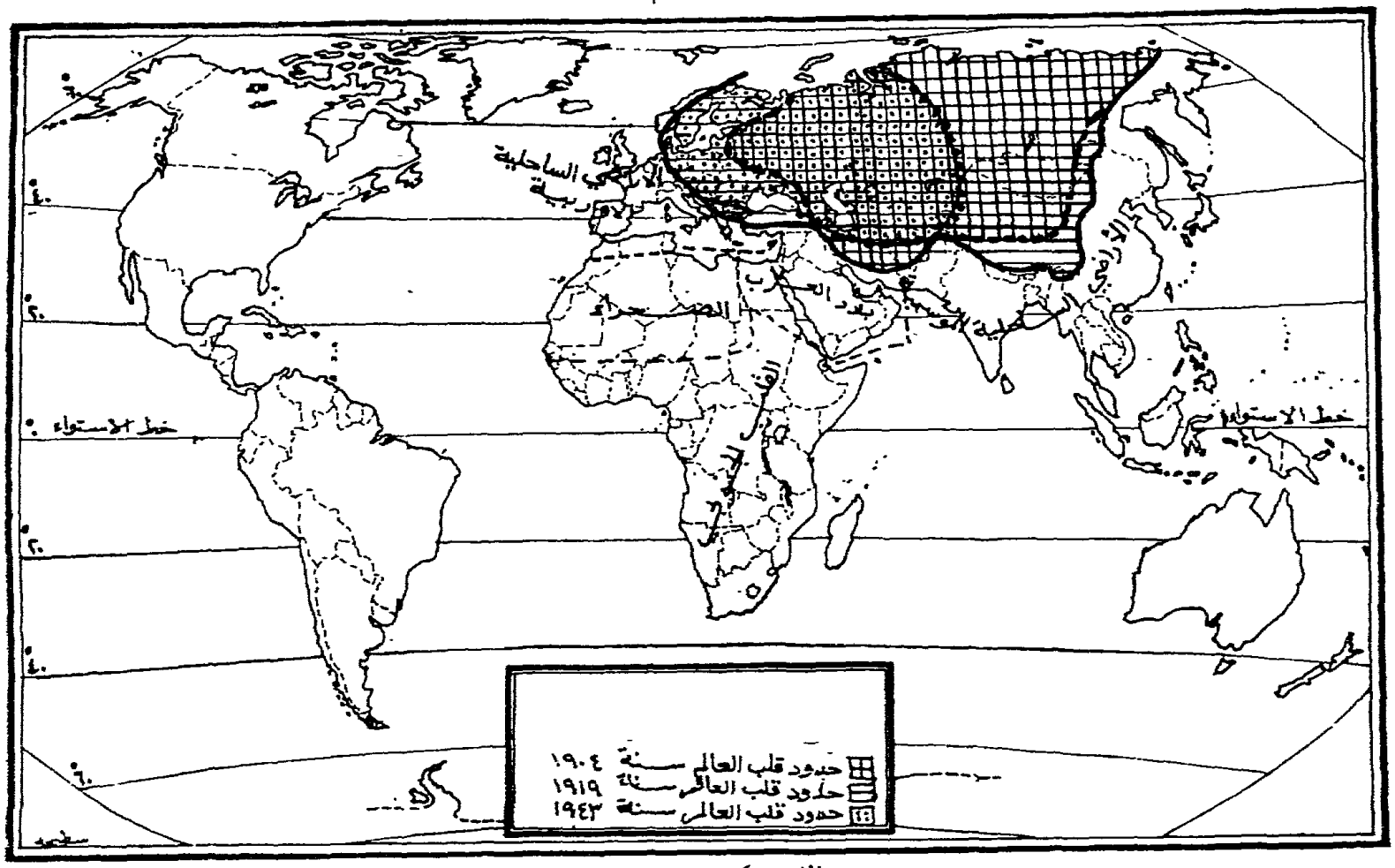

الفرد مكندر وقلب العالم

الخريطة رقم - ٣ -

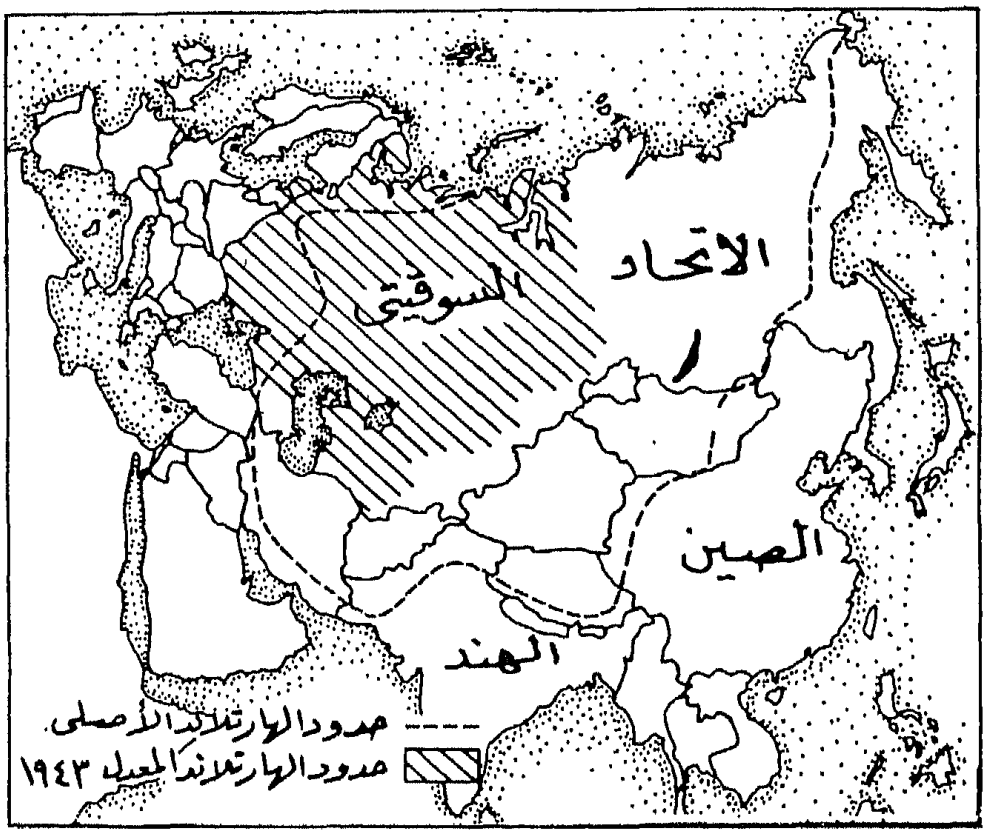

الهرتلاند (قلب العالم) لمكندر ما بين ١٩٠٤ و١٩٤٣

الجزيرة العالمية يتحكم في العالم »[٢٢] (٨٦) . وبالتالي أصبحت المناطق الحاجزة بين الجرمان والسلاف والممتدة من استونيا الى بلغاريا ، بالنسبة لمكندر مفتاح السيطرة العالمية ، واستنتاجاً مفتوحة للنفوذ الألماني والروسي .

وفي الـ ٨٣ من عمره راجع مكندر أفكاره الجيوبوليتيكية وأعاد صياغتها في مقال نشر عام ١٩٤٣ ، حيث أخرج حوض لينا (سيبريا الشرقية) من الهرتلاند الذي أصبح يتكون من سيبريا الوسطى والشرقية (حدود حوض الينيسه وانغارا في الشرق) بالإضافة الى وسط آسيا السوفييتية بأكملها وأوروبا السوفييتية وشرق أوروبا وحوض البلطيق (أنظر الخريطتين رقم -٢- و-٣-) . بتعبير آخر يتضح اهتمام مكندر هنا بتركيز الهرتلاند في الأراضي الجديدة التي كسبها الاتحاد السوفييتي في فيافي الاستبس والغابات المخروطية بتحويلها الى قلب الدولة الزراعي والصناعي الجديد بالإضافة الى أوروبا السوفييتية .

---

(٢٢) نقلاً عن د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ٨٥ . هذا في حين أن د. فتحي محمد أبو عيانة يورد هذه المعادلة بشكل آخر وان أفاد المعنى نفسه (٨٦) .

بالخلاصة رأى مكندر على الكرة الأرضية مجموعة من اليابسة هي أوروبا وآسيا وافريقيا سماها الجزيرة العالمية وقلبها النابض « الأراضي الداخلية » ، التي تتوافق تقريباً مع موقع روسيا (أنظر الخرائط رقم -٢- و-٣- و-٤- و-٥-) . وبذلك انتهى الى المعادلة التالية « من يسيطر على أوروبا الشرقية يسيطر على الأراضي الداخلية ، من يسيطر على الأراضي الداخلية يسيطر على الجزيرة العالمية ، من يسيطر على الجزيرة العالمية يسيطر على العالم »[٢٣] . وهذه المعادلة الأخّاذة تجعلنا نفكر بتاريخ أوروبا ، الذي يفسر بالعوامل الجغرافية . وهذا درس للقوى البحرية ، التي لا يميزها البحر بشيء في واقع الحال بحد ذاته ، إنما يسمح بتنظيم القوى الغنية بالإمكانيات . لكن هذه المعادلة لم تعر اهتماماً العوامل الجديدة ، التي دخلت عالم اليوم ، ألا وهي تكنيك الطيران وأميركا المنظمة ، الأمر الذي حمل مكندر فيما بعد ، على تعديل معادلته ، بحيث ينتج التوازن السياسي عن طريق تشكيل المجموعات الكبيرة ذات المصالح المشتركة والأهداف المشتركة ، والتي تمكن من تنظيم المجالات الكبيرة بشكل صحيح وفعّال ، وبذلك بقيت نظرية مكندر حديثة .

وقد رأى مكندر أن توزع الأراضي والبحار أمر أساسي ، فميز بين القوى البحرية والقوى البرية . فالقوة التي تسيطر في نفس الوقت على البر والبحر تصبح سيدة العالم . وهذا الشرط غير ممكن ما لم تتمكن دولة برية كبيرة منسجمة وقوية للغاية من الوصول الى المحيطات . وروسيا هي الوحيدة الحائزة على هذه الإمكانية ، لذلك يجب الحيلولة بينها وبين البحار للحيلولة دون سيطرتها على العالم . وهنا يعاود التاريخ نفسه إذا شئنا ، إنما بشكل جديد بالطبع .

كما أعطى مكندر مفهوماً جديداً للتغيير الذي طرأ على العالم . فأخذ يتكلم عن المحيط الأطلسي الشمالي على أنه المتوسط أو الأوسط (Midland Ocean) وبذلك ربط اراضي أوروبا الغربية وشمال غرب افريقيا بمعظم مناطق العمران في الولايات المتحدة وكندا وأميركا الوسطى والكارايبي وفنزويلا ، ربط كل ذلك فى وحدة جديدة أو إقليم الأطلسي الشمالي الذي أعطاه أهمية مماثلة للهرتلاند واعتبره قوة مواجهة له .

لن نتعرض لأكثر من وضع النقاط على الحروف بالنسبة لنظرية مكندر هذه ، فنحن نرى فيها تنظيراً لسياسة الامبراطورية البريطانية ، الى حد كبير ، وتشجيعاً لسيطرة أوروبا الغربية على العالم وتبريراً لإستعماره . هذا مع الإشارة الى أنها نظرة استاتيكية تجمد الأوضاع ولا ترى ديناميكية الصراع الطبقي والوطني ، حيث يبقى

---

(٢٣) Pierre Célèrier, Géopolitique et Geostratégie, P.U.F., 3 édition refondue, Paris 1969, p. 13)

(Célérier. Géopolitique et Géostratégie p. فيما بعد)

الخريطة رقم - ٤ -

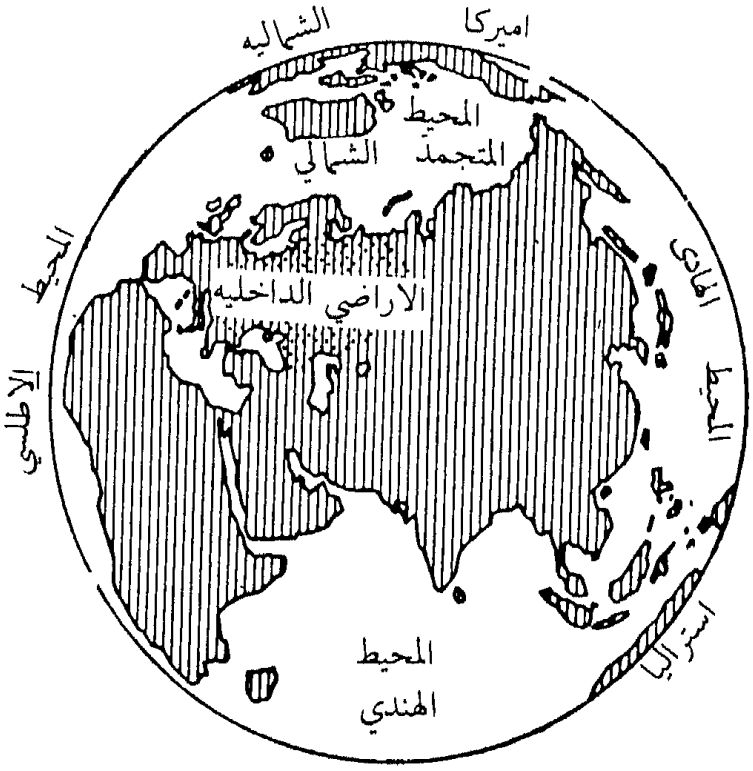

الجزيرة العالمية والأراضي الداخلية (قلبها)

الخريطة رقم - ٥ -

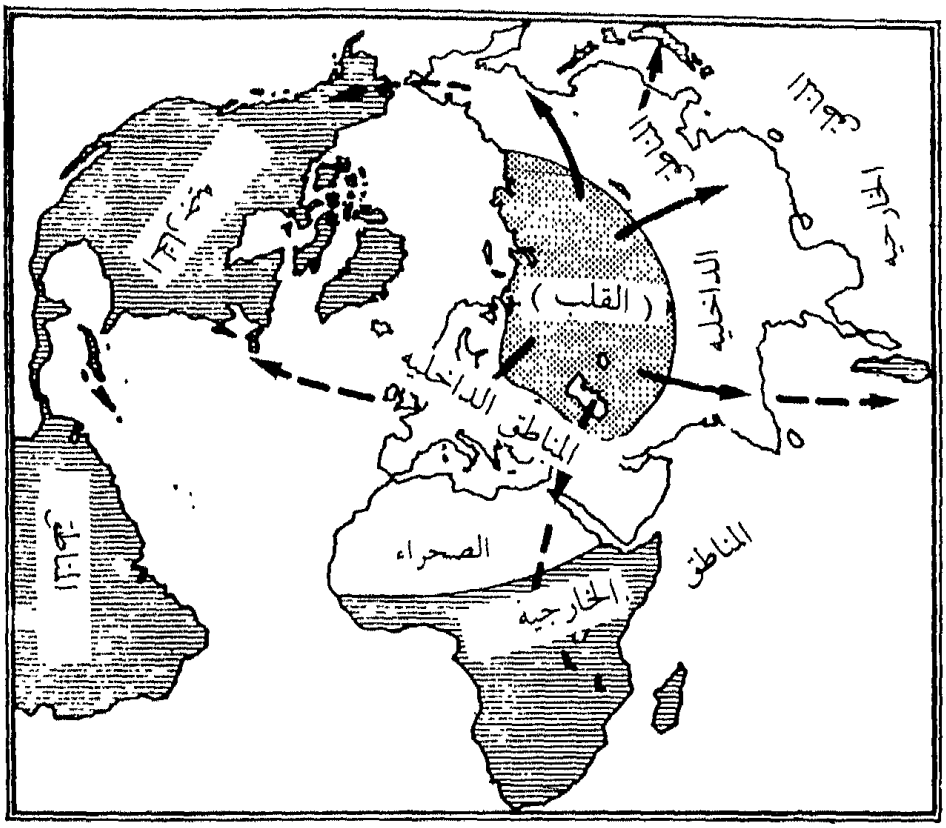

الأراضي الداخلية للجزيرة العالمية

وإشارات التوجهات الاستراتيجيه للسيطرة على العالم

الجوهر الطبقي أيضا للمجتمعات . فمكندر بنظريته هذه يريد تجميد الوضع العالمي ، وبالتالي التاريخ وتخليده في نقطة السيطرة الاستعمارية . وقد برهنت الحياة على عدم صحة هذه النظرية ، بالرغم من أن الشكل بالنسبة للاتحاد السوفييتي وكذلك الولايات المتحدة الاميركية يمدها بالحياة . ولكن المضمون بالنسبة لكل من الإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية يختلف جذرياً . هذا مع الإشارة إلى أن هكذا واقع للجيوبوليتكا يختلف مع النية الحسنة للبعض الذين يرون فيها « الديناميكية » بالنسبة للجغرافية السياسية الاستاتيكية ويخلطون فيما بين المصطلحين ، حيث يرون في الجيوبوليتكا الجغرافية السياسية الديناميكية وتوسع المهام لتنظيم العالم . أما نحن فلا نوافق رأياً كهذا ، سيما بعد النهاية العملية للأخذ بالجيوبوليتكا بالنسبة لألمانيا الهتلرية وأيضاً النتائج البربرية للاستعمار الجديد بمتنوعاته بالاستناد الى الجيوبوليتكا من قبل الامبريالية اليوم وخصوصاً الامبريالية الاميركية .

كما اهتم مكندر بأقاليم آسيا الموسمية وحوض الأطلسي الجنوبي التي رأى لها أهمية مستقبلية . وأخيراً وصف إقليماً جديداً دعاه العباءة الخالية (Mantle of Vacancies) ، وهو إقليم خال أو شبه خال من السكان والنشاط ويتألف من حلقة الصحارى والفيافي والقفار الرملية أو القطبية الممتدة في كل من شمال وشرق سيبيريا وشمال كندا وغرب الولايات المتحدة (أنظر الخريطة رقم - ٦ -) . وهذه الحلقة الفارغة تفصل بين مركزي الثقل الشماليين : الهرتلاند وأراضي المحيط المتوسط عن أراضي الأهمية المستقبلية المتناثرة داخل المحيط الكبير أو الواسع (great Ocean) : أميركا الجنوبية وافريقيا الزنجية وآسيا الموسمية واستراليا المحيطية .

وإذا ما قارنا التغيرات التي حصلت في آراء مكندر عام ١٩٤٣ بالنسبة لعامي ١٩٠٤ و١٩١٩ اتضح لنا نقله الأهمية الجيوبوليتيكية للهرتلاند من الإعتماد ، وبشكل مطلق ، على الموقع والتكتل الأرضي وسهولة الحركة للقوى القارية الى الإعتماد على الناس والعمران والموارد والخطوط الخلفية للحركة . وهذا ما نرى فيه الرؤيا الصارخة لأهمية الوسط الجغرافي وليس الوسط الطبيعي ، والوسط الجغرافي المنتوج الإجتماعي ليس المزرّع فقط وإنما المصنّع أيضاً ، بحيث يصبح هذا الوسط الجغرافي - المنتوج الإجتماعي الرمز والى حد كبير لطريقة انتاج الخيرات المادية والمقرر في تطور المجتمع وليس الوسط الطبيعي الرمز للموقع والمكان . وبالتالي يبدو لنا ، عبر اجتهادنا التفسيري هذا ، أن في ذلك انتصاراً للنظرة الماركسية في الموضوع ، وهو الأمر المرفوض من قبل مكندر ومدرسته الجيوبليتيكية ، التي لتتكيف مع الواقع تلبس اللباس الذي عرضنا (الناس والعمران والموارد والخطوط الخلفية للحركة) واجتهدنا في تفسيره ، وذلك عبر تغير المساحة بحيث تشمل الأراضي المستثمرة زراعياً وصناعياً ، بشكل خاص ، إنما دون الإتيان على ذكر طريقة انتاج الخيرات المادية التي لولاها لما كان هذا التطور في

خريطة رقم - ٦ -

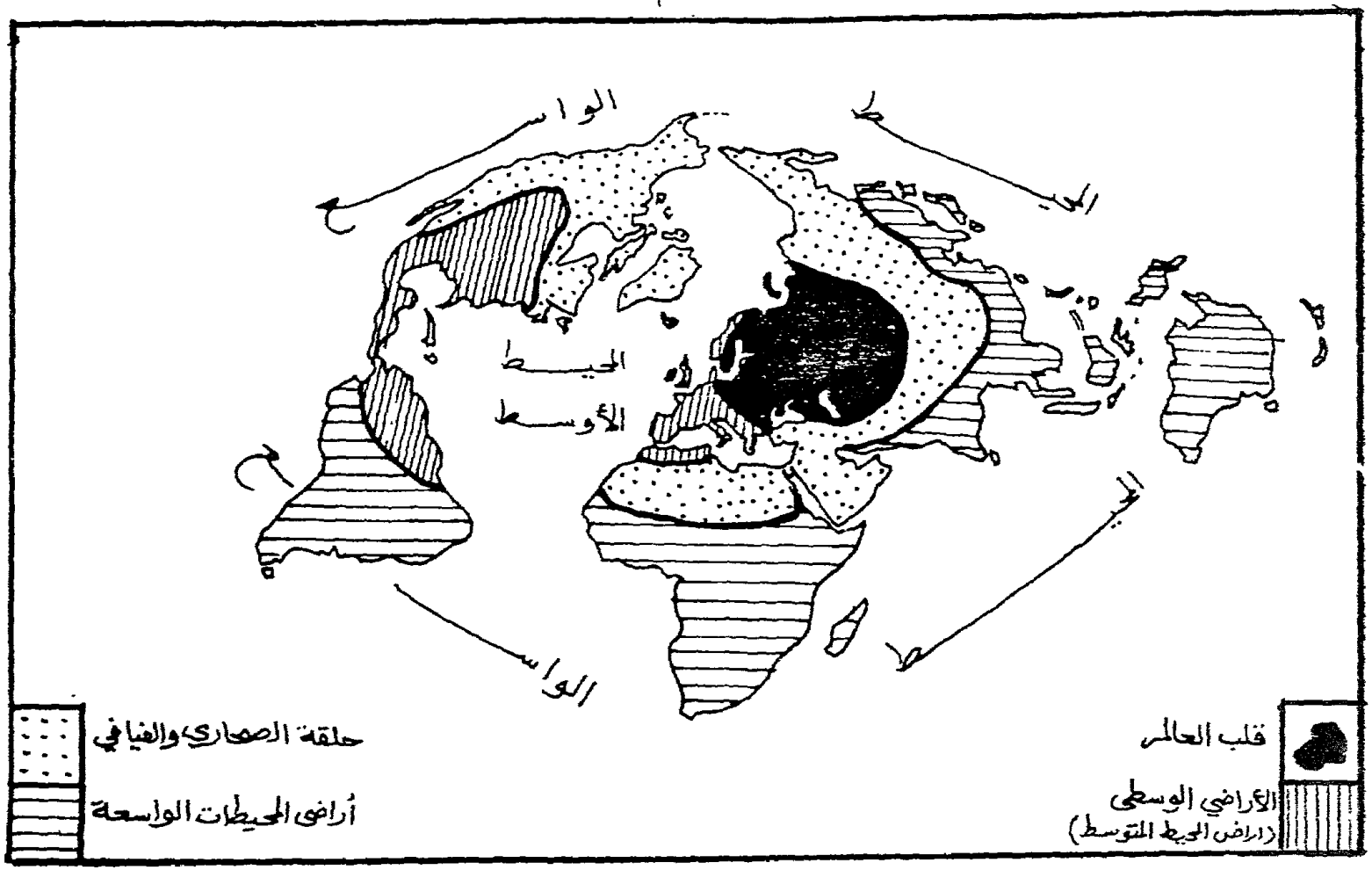

عالم ماكيندر . تصور عام ١٩٤٣

المساحة شكلياً وفي الفكر ومضمونياً ، وكل ذلك رغماً عما ذكرنا ، في المحاولة المستمرة للبقاء في إطار المدرسة البورجوازية : الجيوبوليتكا .

الواقع ان نظرة مكندر قد أثارت حولها الكثير من الجدل ، من ذلك ما ورد مؤخراً من أن الهرتلاند غير مؤهل لحكم العالم بشكل كامل . ومرد ذلك أنه الى جانب مزايا الهرتلاند والحركة ، فكونه وسطاً يجعله معرضاً لإئتلاف الهوامش أو الأطراف ، بحيث يركز الضرب عليه كهدف محدد بواسطة الأسلحة الجوية . وبالتالي ، فإلى جانب المزايا التي يتمتع بها الهرتلاند ، هناك العيوب التي تنتابه . إنما لا بد من الإستدراك والقول ان العيوب برزت مع تطور التكنيك والتكنولوجيا وظهور القوى الجوية . وبالتالي تبقى له ميزته إذا ما وضعنا جانباً القوى الجوية . إنما كون ألمانيا لم تتمكن ، بالرغم من استعمالها القوى الجوية ، في السيطرة على الأراضي الحاجزة بين الجرمان والسلاف ، هذه الأراضي التي أصبحت ، من البلطيق الى البلقان ، في إطار دائرة النفوذ السوفييتي المرشح والمؤهل ، بحكم موقعه في الهرتلاند ، لحكم هذه الأراضي ، دليل آخر بالنسبة للجيوبوليتيكيين المؤازرين لمكندر على صحة نظرية الهرتلاند .

أما الحقيقة هنا بالنسبة لنا فتكمن ، ليس في استاتيكية نظرية مكندر ، بل في ديناميكية النظام الإقتصادي ـ الإجتماعي الجديد ـ النظام الإشتراكي بما أفرز من قوة مادية اقتصادية مكنته من استخدام آلة حربية ضخمة قل مثيلها ما خلا عند الولايات المتحدة الاميركية وبما أفرز أيضاً من قوة معنوية تمثلت وتتمثل بالعدالة الإقتصادية والإجتماعية والديموغرافية والجغرافية ـ الإقليمية ، بحيث لم تؤد الى المساواة الفوقية ، في الدساتير فقط ، وإنما التحتية أيضاً ، في الحياة على الطبيعة ، حيث مرتكز المساواة الحقيقية ـ المساواة الإقتصادية ومن ثم الثقافية .

هذا في حين أن الإستراتيجيين الغربيين ما زالوا ينظرون الى العالم نظرة مكندر اليه طوال النصف الأول من هذا القرن العشرين . وبالتالي فالإستراتيجية الغربية بمختلف أحلافها : حلف شمال الأطلسي ـ الحلف المركزي ، حلف جنوب شرق آسيا ، ليست سوى محاولات لتطويق القوى السوفييتية ، بتعبير آخر محاولة استخدام الهوامش لتطويق الهرتلاند وفي الوقت نفسه محاولة لمنع الهرتلاند السوفييتي من السيطرة العالمية .

ومع ذلك فقوة الإتحاد السوفييتي كقوة مواجهة للولايات المتحدة لا تكمن في هذا الموقع ـ الرؤيا الإستاتيكية بقدر ما تكمن ، وبكل تأكيد ، في العطاء الحضاري الجديد للإنسان ، بمعنى الحل النسبي إنما الإيجابي كل الإيجابية لإنسان العالم الإشتراكي بالنسبة لإنسان النظام الرأسمالي ، وكذلك في حل مشكلة القوميات .

وهذان الحلّان الرئيسيان أفرزا القوة المعنوية للإتحاد السوفييتي ـ الاشتراكية العلمية وتفشيها في قارات العالم ولو بمد وجزر انتهى اليوم الى كوبا في أميركا الوسطى وأثيوبيا في افريقيا والهند في آسيا ، مصحوبة ـ القوة المعنوية ـ بطبيعة الحال بالقوة المادية ، رغماً عن نسبيتها ، والتي تشكل المرتكز الأساسي للقوة المعنوية المذكورة . هذا بالطبع ، مع الإشارة الى العلاقة الجدلية بين القوتين ـ المادية والمعنوية ـ سيما وأن هناك تداخلاً عبر المساعدة الأممية ، للقوى المادية للدول الإشتراكية . هذا والبؤر الثورية المشار اليها في اميركا الوسطى وافريقيا وآسيا ، مقرونة باستلام الأحزاب الاشتراكية ، بمؤازرة الأحزاب الشيوعية ، السلطة في معظم بلدان أوروبا ، كل ذلك لدليل ساطع على القوة المعنوية ، المرتكزة الى القوة المادية والمعنوية للمعسكر الاشتراكي ، القوة المعنوية للإشتراكية بالنسبة للرأسمالية .

إن كل ما ذكرنا جعل البورجوازيين من مؤيدي مكندر يتساءلون وبكثرة ، خصوصاً بعد سنة ١٩٤٣ ، أسئلة تفرز الشك في نظريته ، فما هي هذه التساؤلات ؟ .

أولاً ـ ما هو دور الصين في الصراعات العالمية بعد تحولها الى قوة يسارية كبرى ؟. هل تستعيد آراء جيمس فيرغريف عنها امكاناتها العالمية في التحكم بالهرتلاند الآسيوي ؟

ثانياً ـ ما هو مصير الأحلاف الغربية نتيجة إنسحاب فرنسا ونشأة السوق الأوروبية المشتركة وإنضمام بريطانيا والدانمرك وغيرهما ؟ هل يؤدي هذا الى تكوين قوة ثالثة في العالم الشمالي وتغير وحدة شمالي الأطلسي عبر المحيط المتوسط ؟

ثالثاً ـ ما هو مصير الأحلاف الغربية نتيجة فشل حملة فيتنام وانفصال بنغلادش ؟

رابعاً ـ ما هي القوى التي تعمل في أكثر مناطق حلقة الفيافي والصحارى حساسية وخطورة ، ونعني بها نقطة الشرق الأوسط ؟ ما هي النتائج التي يمكن أن تنتهي اليها صراعات الشرق الأوسط المتعددة على المستوى العربي والمستوى العربي الإسرائيلي ، والمستوى الأميركي السوفييتي ، والمستوى الأوروبي العربي ، والمستوى العالمي ؟

خامساً ـ ما هي نتائج ظهور القوميات الفتية الجديدة في جنوب آسيا والشرق الأوسط وأميركا اللاتينية ؟ »[٢٤] .

في ضوء هذه التساؤلات المتعددة والمعقدة وغيرها من المشكلات الدولية بالإمكان القول إن فكرة الهرتلاند ، رغم ثقلها ، نبدو في منتهى التبسيطية ، بحيث تلغي دور المناطق الأخرى في الصراعات العالمية . كما يبدو لنا أن مكندر ، في ضوء ما ذكرنا ، لو

(٢٤) د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

كان حياً لربما أعاد صياغة أفكاره الأخيرة مرة رابعة ولرأى احتمال تكوين ائتلاف شمالي يشمل الهرتلاند والمحيط المتوسط .

لا بد لنا من وضع النقاط على الحروف بالنسبة لهذه التساؤلات التي لا تُحلّ بطرحها المجرد من ملموسية علاقتها بأرضية الواقع المتحركة مع تطور التكنيك والتكنولوجيا ، وفي الوقت نفسه مع الإتجاهات الإيجابية والسلبية لحركة التحرر الوطني العالمية والاقليمية في القارات الاميركية والافريقية والآسيوية .

فبالنسبة لآراء فيرغريف فيما يعود للصين وإمكانية أن تلعب دورها في الهرتلاند الآسيوي فأمر رهن بصراع الجبارين ـ الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي ونتيجته لصالح الأول ضد الثاني . وهذا الأمر مستبعد حصوله في إطار التوازن الدولي للرعب النووي .

أما بالنسبة لانسحاب فرنسا من حلف الأطلسي ، والذي حدث أيام ديغول ، فهو على ما يبدو لنا شكلي ، على اعتبار أن فرنسا أيام ديستان عادت الى الحظيرة الأميركية وأصبحت على تفاهم تام مع الولايات المتحدة . وكذلك الأمر الآن بالنسبة لميتران رغم انتقاداته السابقة لديستان ، الأمر الذي جر عليه انتقادات الشيوعيين . هذا مثل ينسحب على كل الدول الرأسمالية ، على اعتبار ان التناقض الرأسمالي مهما اشتد يتلاشى ويحل محله التماسك عندما يتعلق الأمر بالتناقض مع الإتحاد السوفييتي والاشتراكية ومعسكرها . ولذلك فغير وارد بعد الذي قلنا قيام قوة ثالثة ـ كان يعمل لها ديغول ـ في العالم الشمالي تؤدي الى تغير وحدة شمالي الأطلسي عبر المحيط المتوسط . ومرد ذلك ، على ما يبدو لنا ، يعود لضخامة قوة الولايات المتحدة وتمكنها من السيطرة الإقتصادية على دول السوق الأوروبية المشتركة التي عجّل في تكوينها وتكوين تركيبها الفوقي ـ البرلمان الأوروبي ـ شعور ضرورة الوقوف في وجه التحدي الأميركي ، الذي أصبح يتحدى العالم (يراجع بهذا الخصوص كتابا جان جاك سرفان شرايبر : التحدي الأميركي والتحدي العالمي) .

لذلك فالأحلاف الغربية سواءً أكان منها التي تحيط بالإتحاد السوفييتي والمعسكر الإشتراكي أو تلك التي تشكل نقاط الإرتكاز للاستراتيجية الأميركية العالمية ، كل هذه الأحلاف ستبقى ، رغم ضعف أهميتها من جراء تطور التكنيك الحربي إلى ما يتعدى الحدود والخطوط الدفاعية والأحلاف بواسطة الصواريخ العابرة للقارات .

أما فيما يعود للشرق الأوسط ونتائج الصراعات فيه فرهن بنتائج الحوار ـ الصراع فيما بين الشمال والجنوب ، مع خاصية تعود هنا للنفط والعصا الأميركية الغليظة ـ اسرائيل . إنما كل شيء هنا متحرك بتحرك حركة التحرر العربية التي تمر بأزمة اليوم من جراء الإرتهان لطرف دولي واحد ـ الولايات المتحدة صديق إسرائيل الصدوق وعدو

العرب اللدود ورفض الإفادة من التوازن الدولي فيما بين الجبارين ـ الولايات المتحدة والإتحاد السوفييتي . هذا مع الإشارة إلى ملامح جديدة في الأفق ربما أدت مع الزمن ، ليس القصير بالطبع بل الطويل أو المتوسط على أقل تقدير ، الى تصحيح الوضع بشكل إيجابي أكثر بكثير .

وأما القوميات الفتية فتندرج في إطار لعبة الأمم ، التي تؤدي بمجراها مع الامبريالية الأميركية وإلى حد كبير بمؤازرتها الى تفتيت الدول التي تتألف منها الى دويلات فتزيد من تخلفها وضعفها في وجه تكتل الدول الأوروبية مع الولايات المتحدة وبزعامتها للاستمرار باستثمار هذه الدول : دول الدويلات ـ العالم الثالث .

أخيراً فيما خص إلغاء الهرتلاند لدور المناطق الأخرى في الصراع العالمي فغير مسموح به ، لأن الهرتلاند هو منطلق هذه الصراعات الأخرى في توجهاته لمحاولة الحفاظ على السيطرة ، المتنازعة فيما بين الشرق والغرب ـ الموآذر أو المسيطر عليه من قبل الولايات المتحدة (لنتذكر مجدداً كتابي شرايبر التحدي الاميركي والتحدي العالمي ، وحيث في الأول ، في نهاية المطاف ، ما سمي بالإستعمار التكنولوجي لأوروبا من قبل الولايات المتحدة وكذلك للعالم في الثاني) .

أما تصور وتكهن ما كان سيعمل مكندر لو كان حياً من قبل د. محمد رياض (كمعبر عن الفكر الجيوبوليتيكي البورجوازي في الموضوع) فأمر قائم وقد أشرنا اليه في أول التعليق هنا واعتبرنا أننا تجاه مدرسة بورجوازية وليس تجاه مفكر فرد مدرسة تجد دوماً من يدافع وبشكل متطور عن مصالحها : مصالح الطبقة التي تمثل ـ الطبقة البورجوازية .

والآن وقد تعرفنا على الجيوبوليتكا ومن رؤيا مقارنة ـ انتقادية ، إنما بشكل عام ، لنتعرف عليها في إطار التطبيق العملي « الأمثل » لها ، في ألمانيا النازية .

الجيوبوليتكا الألمانية

يفترض الحديث عن الجيوبوليتكا الألمانية التمهيد لها بالحديث عن مصادر الجيوبوليتكا ، على اعتبار أن الجيوبوليتكا الألمانية التي تمحورت حول هوسهوفر ومدرسة ميونيخ قد اطلعت على كل مصادر الجيوبوليتكا وأخذت بها مؤقلمة وممحورة لصالح ألمانيا مع إضافات (العنصرية والشوفينية) اقتضتها ضرورة الإنتقائية التي ارتكزت عليها . فلنر ذلك فيما يلي :

مصادر الجيوبوليتكا : كجلين ، راتزل ، مكندر ، هوسهوفر

لقد وضع كلمة « الجيوبوليتكا » (بمعنى البيئة الطبيعية للدولة) السويدي « رودولف كجلين » (١٨٦٤ ـ ١٩٢٢) . وهو عالم في السياسة واستاذ في جامعة

« أوبسالا » وعضو في البرلمان . وله كتابان : الأول نشر في ليبزيغ عام ١٩١٧ بعنوان : « الدولة ـ شكل الحياة » (بمعنى مظهر من مظاهرها ـ L'Etat-forme de la vie) ، والثاني نشر في عام ١٩٢٠ بعنوان : « نظام الدولة العضوية » أو الدولة ـ الكائن العضوي » (بمعنى الأسس اللازمة لقيام نظام سياسي) ، حيث اعتبر « الجيوبوليتكا » واحداً من الأشكال الخمسة المتكافئة لنظام نظري للحكم ، والأربعة الباقية هي : « الاكونومو بوليتك » و« الديموبوليتك » و« السوسيوبوليتك » و« الكراتوبوليتك » ، بمعنى السياسة مع الإسم المرفق لكل من المصطلحات المذكورة ، فنصبح بإضافة الجيوبوليتكا أمام : السياسة الأرضية والسياسة الاقتصادية والسياسة السكانية والسياسة الإجتماعية والسياسة الإدارية .

وقد ظهرت الجيبوليتكا في فترة الامبريالية كسلاحها الفكري ، ومن أوائل ممثليها القانوني وعالم الإجتماع ذو الميل الألماني السويسري و. تشيلين والجغرافي الألماني ف. راتزل ، المدافع عن سياسة الضم للامبريالية الألمانية والجغرافي الإنكليزي هـ. ج. مكندر (انظر مكندر والجزيرة العالمية بما سلف) والأميرال أ. منيمن في الولايات المتحدة الاميركية . وقد لاقت هذه النظرية أوسع الانتشار في ألمانيا الهتلرية .

هذا وقد تأثر كجلين كثيراً بعلماء الطبيعة ، وبشكل خاص بالجغرافيا السياسية التي انتشرت على يد العالم الألماني فردريك راتزل (١٨٤٤ ـ ١٩٠٤) الذي كان متأثراً بدوره بجيولوجيا أواسط القرن التاسع عشر . وكانت الجغرافية آنذاك متأثرة بنظرية التطور . وكان راتزل من أنصار نظرية التطور المذكورة في الجغرافية مع الانتخاب الطبيعي ، كما كان أول من نشر دراسة تعتبر الجغرافية السياسية فرعاً خاصاً من الجغرافية وشبّه الدولة بالعضو البيولوجي ، حيث استعمل الإشارات والرموز . فالدولة بالنسبة له كائن عضوي تشكل الأرض التي يعيش عليها الجسد ، والعاصمة القلب والرئتين ، والطرق والأنهر الأوردة والشرايين ، ومناطق التعدين والإنتاج الزراعي الأطراف ، والقوة هي مدار اهتمام الدول ، التي تعتمد على التربية والثقافة والإقتصاد والحكم وقوة السلطة . كما أضاف إلى ذلك كجلين « إن الدولة ليست كائناً حياً فقط بل انها كائن ذو شعور وقدرات خلقية وعقلية ، واتفق مع راتزل على أن الهدف النهائي للدولة هو الوصول الى القوة[٢٥] . وذلك لإمكانية تأمين الحدود الطبيعية الجيدة خارجياً والوحدة المتناسقة داخلياً .

وأهم ما في الأمر هو أن كجلين رأى في دراسة راتزل عن الجغرافية السياسية الجسر المنطقي الذي يصل العلوم الطبيعية بعلم السياسة . وبالتالي فقد كان على قناعة بأنه احتوى مفاهيم راتزل عن الجغرافية السياسية في دراسته عن الدولة. فكلمة

---

(٢٥) د. فتحي محمد أبو عيانة ، دراسات في الجغرافيا السياسية ص ٣٠ .

« الجيوبوليتكا » التي أطلقها على قسم الجغرافية ، ربما أوحت له وعلى سبيل الموازاة « بالسوسيوبوليتك » وباقي تسميات نظامه الآنف الذكر .

إنما المشكلة مع كجلين هي أنه في تأثره براتزل شوّه هذا الأخير لعدم يقظته في تدارس العلوم الطبيعية وأعلن بالتالي أن الدولة كائن عضوي . وبناء عليه فهذا الكائن العضوي ـ الدولة ـ ذو خاصيات بيولوجية كالنمو والسقوط والأعضاء الخ . . . وخير دليل على تمسكه بذلك هو عنوان كتابه « الدولة ـ الكائن العضوي » .

والأخذ بهذه النظرية « يشخصن » الدولة ويعطيها قوة فعل مستقلة عن المجموعات البشرية والأفراد الذين يشكلونها وتصبح فوقهم . وهذه النظرة تتوافق مع آراء الفلاسفة الألمان السابقين على الداروينية لقرن سلف ، أمثال « جواهن فخته » ، و« جورج هيغل » و« فردريك فون سيشغل » .

إنما لا بد من الإستدراك والقول ان اعتبار الدولة فوق الأفراد والجماعات بناء « للشخصنة » التي تنتابها فتفصلها عن الجميع وتجعلها مستقلة عنهم وفوقهم غير صحيح ، على اعتبار أن الدولة ممثلة للطبقة المسيطرة اقتصادياً وأداة قهر لمصلحتها ضد باقي الطبقات وكما أسلفنا .

وبدا بالتالي نظام كجلين كعملية تجميل للفلسفة السياسية الألمانية السابقة بواسطة علوم الطبيعة التطورية . وبما أن علوم الطبيعة كانت بمثابة « الكشف » تقريباً ، فإعلان كجلين للجيوبوليتكا أعطى أي دولة سلاحاً قوياً للدعاية ولوضع السياسة الوطنية ، الأمر الذي لم يمر مرور الكرام في ألمانيا وكذلك إيطاليا وغيرهما بل كان له فائق الإهتمام .

وقد ترجمت دراسة كجلين الى الألمانية في سنة ١٩١٧ ، وأصبحت بالتالي في سنة ١٩١٨ على أثر انتهاء الحرب بمثابة الرافعة لإعادة بناء ألمانيا المهزومة بحيث تصبح دولة قوية ، خصوصاً وأن كجلين تنبأ في كتاباته بقيام دولة عظمى (Superstate) في أوروبا ستكون ألمانيا . كما تأثر بأفكاره الى حد كبير بالجغرافيين الألمان وخاصة راتزل كما رأينا . فالدولة في نظره كائن حي ويعتمد بقاؤها على سكانها وحضارتها واقتصادها وحكومتها وأرضها . بالإضافة الى ذلك فقد تنبأ بزوال الإمبراطوريات البحرية وانتقالها الى الدول البرية التي سوف تسيطر بدورها على المسالك المائية(٢٦) .

وقد أمسك بهذه النظرية بعض الجغرافيين وعلماء السياسة والكتّاب وجعلوها في مدار اهتمام القيمين على السلطة في ألمانيا آنذاك وخلال العشرين سنة الحرجة لما بين الحربين العالميتين . وهنا سخّرت الجغرافيا لخدمة الدول ـ الغرض الأسمى

(٢٦) د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا السياسية والمشكلات الدولية ص ١١

للدراسة ، وبالتالي تحولت الجغرافيا في مجملها الى جيوبوليتكا .

وبناءً عليه فقد تألقت مجموعة من هؤلاء الذين اهتموا بهذه النظرية حول كارل هوسهوفر (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) الذي تبناها وحتى تشخصنها إن جاز التعبير ، ولدرجة جعلت الجغرافي كارلسون يقول « إذا كان كجلين مخترع الجيوبوليتكا فإن هوسهوفر نبي الجيوبوليتكا »[٢٧] .

وقد كان هوسهوفر ضابطاً في الجيش البافاري وأثّر بالتالي على القيادة العامة الألمانية . وقبل الحرب العالمية الأولى انتهز الفرصة لدراسة الجغرافية في مجال أبعد مما كان يدرّس للضباط الألمان . وعلى اثر دراسته الشرق حصل على درجة « دكتور فلسفة » (١٩١١) من جامعة ميونيخ لما كتب دراسة عن « الجغرافية الحربية والسياسية للامبراطورية اليابانية » ، وكان قد خلّ العقد الأول من القرن إلعشرين .

هذا وعلى أثر انسحابه من الجيش في سنة ١٩١٩ كرّس هوسهوفر حياته لانبعاث الدولة الألمانية بواسطة الجغرافية . فأخذ نظرية كجلين في الدولة « الكائن العضوي » التي أخذها بدوره عن راتزل ، وتخطاها بوضع مصطلح الجيوبوليتكا لنوع الجغرافية التي كرّس نفسه لها بدون كلل ولا ملل ، وأصبحت « الجيوبوليتكا » التي بناها مؤلّفه من وقائع عن الأرض ونظريات الدولة وبعض من التاريخ الألماني . ومن مجموع هذه المنابع الثلاثة استقطر الدعاية القومية التي نفذت الى أي نوع كان من الألمان . وقد أعطى للجيوبوليتكا الألمانية الانسجام والإتجاه المؤدي إلى أن الدولة الألمانية التي ما توقفت عن النمو عبر القرون هي كائن عضوي ، عليه الإمتداد المتواصل على الأرض حتى غزو العالم . هذا كما استفاد هوسهوفر من نظرية مكندر حول « الأراضي الداخلية ـ قلب العالم » بدفعها قليلاً إلى الغرب لخدمة القضية الألمانية . وأصبحت بالتالي الجيوبوليتكا التي وصل اليها « دليل عمل والضمير السياسي للدولة الألمانية » .

كما نرى فكجلين جمع مختلف الآراء من راتزل ومكندر ، فأدى بذلك خدمة جلّى إلى مؤسس مدرسة ميونيخ الجيوبوليتيكية ـ كارل هوسهوفر ، الذي أقلم كل ذلك مع غيره اقتضته ظروف انبعاث ألمانيا لاستعادة مركزها كقوة عالمية تعمل للسيطرة على العالم .

منهجية ووسائل الجيوبوليتكا الألمانية (كارل هوسهوفر ومدرسة ميونيخ)

بدأ هوسهوفر (١٨٦٩ ـ ١٩٤٦) حياته العمليةٍ قائداً في الجيش القيصري

---

(٢٧) L. Carlson, Geography and World Politics, Prentice Hall, 1959, p. 17. (Carlson,Geography and World Politics, p. فيما بعد)

الألماني . خلال الفترة ١٩٠٨ ـ ١٩٠٩ قصد اليابان معلما للمدفعية . وقد كان لهذه الرحلة كبير الأثر على تكوينه السياسي والعسكري ، إذ أنه ذهب الى اليابان بطريق البحر ، عبر قناة السويس ، وعاد الى ألمانيا بطريق البر ، عبر سيبيريا . وخلال الحرب العالمية الأولى ترقى الى رتبة جنرال . على أثر انتهاء الحرب تقاعد ، وكان قد حصل عام ١٩١١ على درجة دوكتوراه في الفلسفة من جامعة ميونيخ ، الأمر الذي مكّنه من أن يصبح أستاذاً للجغرافيا والتاريخ الحربي فيها سنة ١٩٢٠ ، وكان قد بدأ يحاضر في الجيوبوليتكا ابتداءً من العام ١٩١٩ . وعلى أثر تسلم النازيين السلطة في سنة ١٩٣٣ أصبح أستاذ « الجيوبوليتكا » . وهنا التأم حوله وبمبادرته مجموعة من التلامذة ، مع بعض الصحفيين ، الذين عملوا للإنتشار الواسع للجيوبوليتكا .

إذن فقد كان منطلق هوسهوفر القائد الأستاذ ورجل السياسة ورجل الحرب بحكم تكوينه الثقافي ونشاطه العملي ، في جامعة ميونيخ . في سنة ١٩٢٤ اتسعت دائرة نفوذ هوسهوفر ، على إثر تأسيسه « معهد ميونيخ للجيوبوليتكا » وإصداره مجلة « الجيوبوليتكا » الشهرية ، التي كان رئيساً لتحريرها والمساهم الأكبر بالكتابة فيها . ومن وقت لآخر كان ينشر المقالات الموجهة للتأثير في الرأي العام في البلدان الأجنبية المتعاطفة مع طريقة الحياة الألمانية (والتابعة اقتصادياً لألمانيا) . وقد جذبت اليه مجلة الجيوبوليتكا عدداً من كبار أساتذة الجغرافيا الألمانية مثل ايريخ أوبست (E. Obst) وأوتومول (Otto Maull) وغوستاف فوشلر هوكه (G.F. Hauke) واوتو جسن (O. Jessen) وكثيرين غيرهم بالإضافة الى ابنه البرت .

وقد كان يصدر عن المجلة العديد من الكتب التي تتناول موضوع الجيوبوليتكا ، وكان لهوسهوفر مساهمة كبيرة فيها . كما تنبغي الإشارة ، بالنسبة لما نحن بصدده ، إلى أن معظم الذين كتبوا هنا أخذوا برأي أستاذهم هوسهوفر في الموضوع ، لدرجة نقل أسلوبه الغامض ومصطلحاته الضبابية .

إنما هوسهوفر تأثر كثيراً أيضاً بآراء من سبقوه (كجلين ، راتزل ، مكندر ، ماهان) فيما كتب في الجيوبوليتكا ، حيث وصل الى منتهى الخطورة في فلسفته السياسية : التوسع الألماني والحرب الشاملة من أجل السيطرة على العالم ، التي أصبحت الثوابت في مدرسة ميونيخ ونُظّرت بحيث تجلت في فكرتي « المدى الحيوي » أو « المجال الحيوي » والاكتفاء الذاتي ، فشكلت المبادىء الأساسية ، التي ارتكزت عليها المبادىء العامة الإستراتيجية الثلاث وهي :

- مبدأ الدولة العملاقة أو الكبرى (راتزل)
- مبدأ الجزيرة العالمية (مكندر)
- مبدأ إزدواجية القارات

فلنستعرض هذه المبادىء الأساسية ، المستندة اليها هذه المبادىء العامة الإستراتيجية الثلاثة في مدرسة ميونيخ « الهوسهوفرية » ، إن جاز التعبير ، لما كان لرئيسها من تأثير كبير على مريديه كما أسلفنا .

الواقع ان المبادىء الأساسية هذه المذكورة ، قد سبقت الإشارة اليها في الحديث النظري المركز عن مصادر الجيوبوليتكا ، لذلك نعرضها هنا بشيء من الملموسية .

أولاً إن الدولة كائن عضوي ـ كائن حي (راتزل) . فبالإستناد الى ذلك رأى هوسهوفر ، في تشخيصه للأمراض التي تشكو منها الدولة ، أنها تتلخص في مشكلة الأرض التي تمثلها . كما رأى العلاج لكل مشاكل الدولة السكانية والإقتصادية والعسكرية في الأخذ بمبدأ « المدى الحيوي » الذي ، إذا ما توفقت به ، يُحسِّنُ موقعها وعلاقاتها المكانية الأرضية .

ثانياً الإكتفاء الذاتي ، الإقتصادي بالطبع ، حيث المقاييس الأربعة التي وضعها هوسهوفر مع زملائه والتي تشكل المقومات التي لا غنى عنها للدولة القوية وهي : العدد الوفير من السكان ، النسبة المرتفعة للمواليد ، التماثل والتشابه بين دم السكان (السلالة) (٨٧) والتوازن بين سكان الريف والمدن .

بالنسبة للمبدأ الأول سبق لنا أن رفضناه عبر رفضنا للحتمية الجغرافية التي يجسد . أما فيما يعود للإكتفاء الذاتي ومقاييسه ، فهي مجردة ، ما لم ترتبط بالاقتصاد الذي يلونها فيجسدها . بتعبير آخر لا معنى لهذه المقاييس معلقة في الهواء وبعيدة عن نوع الأرضية الاقتصادية ـ الإجتماعية التي تقوم عليها . فالعالم الثالث مليء بوفرة السكان وارتفاع نسبة المواليد وكذلك التجانس العرقي في بعض دوله ، ومع ذلك فدوله غير مكتفية ذاتياً بل متخلفة وهي تابعة للدول المتقدمة . هذا بالإضافة الى كون العكس هو الأصح أخذاً بهذه المقاييس الثلاثة المذكورة . ويكفي لذلك تذكر الولايات المتحدة الاميركية والإتحاد السوفييتي . وفيما يعود للتوازن بين الريف والمدن فإذا ما استثنينا الدول الاشتراكية ، وبشكل خاص الإتحاد السوفييتي ، حيث التجسيد الصحيح والأهم له ، فهو المميز للدول المتقدمة والى حد ما ليس إلا ، إنما في إطار انفلاشها الدولي على الصعيد الاستعماري سابقاً والامبريالي الاقتصادي لاحقاً واليوم . ولذلك نجد التجسيد الانفلاشي لهذا المقياس الرابع هنا عبر العنصرية لدى الجيوبوليتيكيين الألمان ، بحيث نصبح أمام التماثل مع الوطن الأم والمستعمرات . فكأني بهم نظّروا من رؤياهم الخاصة عن الاستعمار القائم ، الذي يطمحون إليه ، خصوصاً وأنهم قد مارسوه ، الى حد ما ، ولو اقتصادياً في جنوب شرق القارة الأوروبية (بلغاريا ، رومانيا ، ووسط القارة) (٨٨) . فالألمان المتقدمون صناعياً هم سكان المدن ودول البلقان الزراعية الملحقة هم سكان الريف . إذن فبضم دول

البلقان يحصل التوازن بين سكان الريف وسكان المدن في الرايخ الثالث . وذلك هو التجسيد للإكتفاء الذاتي بواسطة المدى الحيوي .

إذن فالجيوبوليتيكيون الألمان ينظّرون ما يطمحون اليه وبالتالي ليس في ذلك شيء من العلم .

أما فيما يعود للمبادىء العامة الإستراتيجية الثلاثة التي ذكرنا فهي :

- مبدأ الدولة العملاقة أو الكبرى والذي دعا اليه ف. راتزل .
- مبدأ « الجزيرة العالمية » ، الذي طوّره مكندر في كتاباته (١٩٠٤ ، ١٩١٩ ، الخ . . .) (أنظر الخرائط رقم - ٢ - و-٣- و-٤- و-٥- و-٦-) .
- مبدأ إزدواجية القارات ، حيث واحدة في الشمال وثانية في الجنوب ، والإثنتان معاً تكونان كتلة قارية ذات اكتفاء ذاتي ، على اعتبار ان الشمالية تقدم المصنعات والجنوبية تشكل مداها الحيوي في إنتاج الخامات والتسويق .

الواقع ان هذه المبادىء في تفاعلها أدت الى تكوين الخطوط العريضة لنظرة هوسهوفر في الموضوع وبلورت أفكاره في الجيوبوليتكا الألمانية - مدرسة ميونيخ ، التي كان يتزعم ، فهو يرى أن عالم الغد يفترض فيه بل حتى يتوجب عليه أن يسير على نمط الدول الكبرى : التطلع السياسي للمستقبل . هذا التوقع من قبل هوسهوفر أثبتت الأيام صحته . فبعد حوالي نصف قرن من كتاباته تجلى الإتجاه العام في مقدمات تكوين الدول الكبرى في العديد من أرجاء العالم ، وبشكل خاص في أوروبا ، المعروف ، لفترة تاريخية طويلة أنها تتألف من دول صغيرة المساحة ، وحيث برزت كتلة السوق الأوروبية المشتركة وكتلة دول الكوميكون (مجلس التعاضد الاقتصادي) في شرق أوروبا . وعلى غرار هذا الخط يجري تشكل تكتلات إقليمية في افريقيا والعالم العربي ، مردها كسالفتها - التكتلات الأوروبية ، لأسباب داخلية وفي الوقت نفسه خارجية .

على أن نظرة هوسهوفر الى الدولة الكبرى هي من زاوية قومية صرف وليس من زاوية تشارك الشعوب والدول في تطوير مصائرها استجابة للتحديات الداخلية والخارجية معاً . بناءً عليه فهو يرى ضرورة ، بل حتمية ، ابتلاع ألمانيا الدول الصغرى الواقعة الى الغرب والشرق منها - ألمانيا -، وعند اللزوم لا مانع على الاطلاق من تنفيذ ذلك بقوة السلاح ، طالما الغرض تأمين سيطرة ألمانيا المطلقة على أوروبا القارية .

هذا التعليل التبريري البورجوازي للدولة الكبرى كرؤيا مستقبلية سبق لنا أن طرحنا أسبابه الحقيقية وهي إقتصادية داخلية وخارجية ، وذلك فيما سلف من الحديث عن « الدولة والأمة والمواطنية العالمية » (أنظر الفصل الرابع) . فالواقع ان السبب الحقيقي لتشكيل الدولة الكبرى يعود لتطور قوى الإنتاج وتخطيها أطر الحدود القومية

في الدول الصغيرة المتعددة بحيث أصبحت علاقات الإنتاج فيها توجب الانفلاش أيضاً لتتوافق مع قوى الإنتاج ، التي تخطت الحدود القومية . وهذا الأمر الواقع أدى في أوروبا القوميات الى السوق الأوروبية المشتركة ـ القاعدة الاقتصادية والبرلمان الأوروبي : التركيب الفوقي لهذه القاعدة . وذلك لضرورة استمرارية تأمين مصالح النظام الرأسمالي وطبقته البورجوازية . هذا مع الإشارة الى وجود عوامل داخلية وخارجية أيضاً سرّعت وتائر تشكل هذه الدولة الكبرى المستقبلية : أوروبا المتحدة أو الإتحاد الأوروبي أو غير ذلك من التسميات (يراجع بهذا الخصوص الفصل الرابع : الدولة والأمة والمواطنية العالمية) . أما حتمية قيام ألمانيا بهذه المهمة بالقوة فمرده للنظرة الجيوبوليتيكية الألمانية ومجرد تبرير وتنظير للإغتصاب الذي لم توفق ألمانيا في مسعاها إليه كما برهن سير التاريخ .

أما فيما يعود لجزيرة مكندر العالمية الإطار ، فقد شكلت المجال الرحب لإمكانية السيطرة الألمانية أو تكوين نظام عالمي جديد . فمدرسة ميونيخ كانت ترمي هنا الى السيطرة على روسيا لغرض تأمين الحكم الألماني على كل أوروآسيا وكذلك تدمير الامبراطورية البريطانية وقوتها البحرية بحيث تتأمن السيطرة المطلقة لألمانيا على كل الجزيرة العالمية (أوروبا ـ آسيا ـ افريقيا) .

على أن تحقيق هذين الهدفين لم يكن ليستدعي ، حسب هوسهوفر ، بالضرورة ، الحرب الشاملة . وبالتالي من الضروري قيام اتحاد أو تحالف ألماني ـ روسي يكون بمثابة حجر الزاوية في الوحدة الأوروآسيوية ، التي تشتمل على تكتل آخر هو الصين واليابان .

كما تجلى تأثير هوسهوفر في مدرسة ميونيخ في الربط بين القوى الدولية الكبرى والمسافات القارية الكبيرة ، بحيث أصبح لدى الجيوبوليتيكيين الألمان فكرة أوروبا الكبرى وفكرة الأقاليم الكبرى . وبناءً عليه يصبح شرق أوروبا هو الجزء الأرضي الواقع تحت تأثير القوانين الجيوبوليتيكية الأوروبية . وبالتالي دعا الجيوبوليتكيون الألمان الى وحدة أوروبية تضم كافة القارة واعتبروا ذلك أمراً وراثياً ومن طبيعة الأمور (٨٩) ، إنما تأمينه يجب أن يُعمل وبسعي كلي كيما يكون من دون الحرب الشاملة ، كما أسلفنا ، ومن دون الصدام مع الإتحاد السوفييتي وهو الأهم . فهوسهوفر نفسه كان كبير الشك في إمكانية ومقدرة استراتيجية حرب الصاعقة الألمانية النجاح ضد المساحة الهائلة والموارد الضخمة للإتحاد السوفييتي . على اعتبار أن نجاح هذه الإستراتيجية ـ الحرب الصاعقة ـ في الدول الأوروبية الصغيرة (بولندا ، فرنسا ، هولندا ، . . .) لا يبرر على الإطلاق امكانية نجاحها في المدى الكبير لدولة الاتحاد السوفييتي الكبرى الضخمة الموارد والإمكانيات . وبالتالي تصبح الحرب مع الإتحاد السوفييتي محفوفة

بالمخاطر ومغامرة غير مأمونة العواقب . وهذا ما جعل مدرسة ميونيخ الجيوبوليتيكية تقترح نظاماً جديداً للسيطرة على القارات بصورة مفهوم الأقاليم الكبرى (Pan Region) ، التي تتكون من :

- أميركا الكبرى
- أورو افريقيا
- روسيا الكبرى
- آسيا الشرقية الكبرى .

ولمعرفة التفاصيل الجغرافية لهذه الأقاليم يراجع الهامش رقم (٩٠) .

على أن نظام الأقاليم الكبرى هذا لم يؤد الى التوازن اللازم بين أقاليمه الكبرى الثلاثة في العالم القديم (أوروبا ، افريقيا ، وروسيا الكبرى) وبين العالم الجديد (أميركا الكبرى) ، بحيث استوجب الأمر ضرورة اتحاد العالم القديم ليتمكن من الوقوف بوجه العالم الجديد . وبالتالي فجذور إمكانية الحرب مع اليابان لفرض السيطرة العالمية أمر وارد وشعر به أصحاب مدرسة ميونيخ .

إنما بهذا الصدد لنا أيضاً بعض الرأي أوردناه في الفصل الرابع : الدولة والأمة والمواطنية العالمية ، حيث ركزنا على أن اتحاد العالم القديم للوقوف بوجه العالم الجديد عبر السوق الأوروبية المشتركة والبرلمان الأوروبي لم يحل دون استمرارية نمو السيطرة الاميركية اقتصادياً وسياسياً وعسكرياً ، في العالم الرأسمالي وتزعمها له وبالمقابل تزعم الاتحاد السوفييتي للعالم الإشتراكي ووقوفه بوجه الزعامة الاميركية للعالم الرأسمالي ، بحيث أصبحنا أمام جبارين يقرران مصير العالم . وهنا بالضبط برهان آخر ليس بجديد على أن المقرر في نهاية المطاف ليس الوسط الجغرافي والحتمية الجغرافية وبالتالي التاريخية وإنما طريقة انتاج الخيرات المادية .

وبالنتيجة ففكرة الأقاليم الكبرى كانت محكومة بالفشل لاستحالة تحقيقها بغير الحرب ولقرب القارات الجنوبية في كل إقليم من مراكز القوى الأخرى في القارات الشمالية (٩١) . كذلك فإن فكرة الأقاليم الكبرى بتركيزها على الجغرافيا والوسط الجغرافي دون أخذ المضمون الاقتصادي ـ الإجتماعي لمراكز القوى بقيت أسيرة الحتمية الجغرافية وبالتالي التاريخية ولم تر أهمية ودور التطور الإقتصادي ومستواه مقروناً بالنظام الإقتصادي ـ الاجتماعي في العملية الصيرورية للدول الكبرى ، والتي انتهت الى جبارين ، كما أسلفنا ، من جراء بروز نظام اقتصادي إجتماعي جديد على مسرح التاريخ البشري على المسرح الحضاري للعالم هو النظام الإشتراكي .

هذا وفيما يعود لمبدئي الجزيرة العالمية وازدواجية القارات اللذين استعرضنا وعلقنا عليهما ، فواضح أنهما كانا محفوفين بخطر الخوف المرعب من الإتحاد السوفييتي ،

الذي عمل الجيوبوليتيكيون الألمان على تجميده ، إنما لفترة ، عبر « معاهدة ـ خدعة » من الرايخ الثالث مع الاتحاد السوفييتي لم تدم طويلاً من جراء نفاد صبر هتلر والنازيين بسبب فشلهم في بريطانيا ، وبالتالي عادوا الى المغامرة ، حيث ما كان يجب أن تكون ، حتى حسب رؤياهم ومنطقهم هم أنفسهم . كذلك واضح الترجرج في هذه الأفكار ومحاولات التفسير التبريرية ، غير العلمية بالطبع ، لما قامت وتقوم وستقوم به المانيا من استيلاء على أراضي الغير في القارة الأوروبية لتأمين إرغام الإتحاد السوفييتي فيما بعد على الرضوخ لإرادتها والتربع على عرش قلب العالم . على أنه كما يقولون « حساب الحقل لم ينطبق على حساب البيدر » ، سيما وأن التنفيذ كان منذ البدء محفوفاً بالمغامرة ويقوم على ما ليس فيه شيء من العلم كما أسلفنا (يراجع ما أوردنا حالياً فيما سلف من تعليق وما ورد كذلك من وضع النقاط على الحروف في هذا الفصل في عنوان مكندر والجزيرة العالمية) .

كذلك الإنزلاق مما ذكرنا الى فكرة الأقاليم الكبرى في إطار ازدواجية القارات لم يكن بالإمكان الأخذ به كما تصوروا وهناك استحالة للأخذ به بغير الحرب كما ذكرنا . هذا بالإضافة الى كون ميزان القوى بين إقليمي أميركا وروسيا (الإتحاد السوفييتي) هنا تطور لدرجة أصبحا يقرران مصير العالم وتواجههما العسكري النووي لا بد وأن يؤدي الى نهاية العالم ، وبالتالي أصبح هذا العالم تجاه نوع من الأمر الواقع (Statu quo) النسبي من جراء تغيره البطيء بفضل تأثيرات تصاعد حركة التحرر الوطني في دول العالم الثالث ، بالرغم من النكسات التي تنتابها من حين لآخر . هذا بالإضافة الى التفاوت في التفوق العسكري من وقت لآخر فيما بين الجبارين وانعكاساته الإيجابية لتحريك الأمر الواقع المذكور ، مقروناً بالطبع بما أسلفنا الآن من دور حركة التحرر الوطني المذكورة .

هناك أخيراً ثلاثة نقاط نختتم بها البحث في مدرسة ميونيخ ، بالرغم من كونها بديهية وليس لها بعد نظري وهي تتعلق بالعواصم ، التي سبق وألمحنا الى أهميتها النسبية للجغرافيا السياسية (أنظر الفصل الثامن : عواصم الدول) ونتناولها هنا في إطار أهميتها بالنسبة للجيوبوليتكا بشكل خاص ، وأيضاً ابعاد استراتيجية الموقع والإستراتيجية العسكرية وكذلك مناطق الصدام بين الدول المتنافسة .

العواصم والتأثيرات النفسية

لقد رأت مدرسة ميونيخ في موقع العاصمة الدليل على قوة الدولة واستقرارها وهي تستشهد على ذلك بنقل عدد من الدول عواصمها من مناطق الخطر قرب الحدود الى المناطق الداخلية ، حيث الحماية الأفضل . وأهم الأمثلة هنا نقل تركيا عاصمتها من استانبول الى أنقرة وروسيا من لينغراد (بطرسبورج سابقاً) الى موسكو ، وحديثاً

نقل باكستان عاصمتها من كراتشي الى إسلام أباد والبرازيل من ريو دي جانيرو الى نوفي برازيليا .

على أنه الى جانب الأسباب الاستراتيجية التي رأتها مدرسة ميونيخ ، والتي شملت الموقع وكانت شكلية وما تزال أمام تطور الإستراتيجية الحربية الناتجة عن تطور التكنيك والتكنولوجيا الحربيين ، الى جانب ذلك هناك الأسباب العائدة للإهتمام بالتنمية الإقتصادية ـ الإجتماعية ومحاولة فلشها جغرافياً لتأمين العدالة الإجتماعية ما أمكن .

على أن التأثير النفسي للعاصمة على نفوس الشعوب أمر لا جدال فيه . هذا مع إمكانية التغلب عليه عبر التعبئة النفسية المضادة وحرب العصابات وغير ذلك مما جرى في التاريخ ، وخصوصاً في روسيا القيصرية أيام حربها مع نابليون ، وفيما بعد مع ألمانيا النازية الهتلرية في الحرب العالمية الثانية . إنما بالرغم من ذلك فالدولة تعمل ما أمكن ، ولو بالتضحيات الكبيرة للحفاظ على الرمز الجامع للشمل والممثل لإرادة الأمة ـ العاصمة . ولنتذكر هنا لينغراد ـ العاصمة التاريخية ومقاومتها في وجه الغزو النازي الهتلري وصمودها الرائع وكذلك العاصمة الحالية موسكو (يراجع بهذا الصدد أيضاً الفصل الثامن : عواصم الدول) .

إستراتيجية الموقع والإستراتيجية العسكرية

يتلخص رأي مدرسة ميونيخ هنا باستمرارية الإهتمام الرئيسي بالدور الحاسم للقوة البرية بالنسبة للقوتين البحرية والجوية ، اللتين تعتبران مكملتين لها . كما ترى هذه المدرسة ضرورة التحكم بالبلدان التي تقع فيها القواعد الحربية للتعويض على فقدان القيمة الاستراتيجية لهذه القواعد . وبذلك تصبح البلدان التي تقع فيها هذه القواعد الحربية أهم من الناحية الاستراتيجية من القواعد نفسها (قناة السويس ومصر) .

على أنه يبدو لنا ان الأمر منوط ورهن بمستوى تطور التكنيك والتكنولوجيا بشكل عام وعلى كل الصعد والأنشطة الاقتصادية وانعكاساتها على كل الصعد أيضاً في الأنشطة الحربية .

مناطق الصدام بين الدول المتنافسة

وهي مناطق الاحتكاك الحقيقي بين نفوذ دولتين في صراعهما على مدّ كل منهما سلطته ، وحيث تبدأ المعارك السياسية والتي تؤدي أحياناً الى المعارك العسكرية . مثال ذلك الفليبين الواقعة بين دائرتي النفوذ الاميركية واليابانية (٩٢) .

هذا وفي كتابات هوسهوفر مصطلحات أخرى على علاقة بالموضوع وهي

« مجالات المدفع »، « نطاقات الحظر » ، « مناطق الاهتزاز » ، و« خطوط القوى » . وهذه الأخيرة ـ خطوط القوى ـ توضح اتجاهات القوى المتصارعة في منطقة ما من مناطق الصدام والخطر (أنظر الخريطة رقم ـ ٧ ـ) .

أخيراً لا بد من استعراض الوسائل التي لجأ إليها الجيوبوليتيكيون الألمان لأجل الأخذ العملي بالجيوبوليتكا في بلادهم ونتائجها فيها وفي الخارج . وكل ذلك في إطار وضع النقاط على الحروف لكل ما استعرضنا وإيجازُه النظري المكثف .

لقد ضم هوسهوفر الإرادة إلى الصوفية الفلسفية في الجيوبوليتكا . والرغبة في تعميم الأفكار بحيث تصبح « نظرة الى العالم » هي من صفات الفكر الألماني ، الذي لم يشذ عن هوسهوفر . وبالتالي بقي للجيوبوليتكا هذه شكل الجغرافية في حين احتوى مضمونها « المدى الجغرافي الحيوي » لدرجة الصوفية . وتحولت الجيوبوليتكا بالتالي الى فلسفة عملية للسياسة الألمانية الوطنية الطامحة الى السيطرة على الشعوب الأخرى . وقد نتج هنا عن امتزاج النظرية بالنشاط العملي السياسة الوطنية ، التي وجدت إطاراً لها في طبيعة أوروبا الوسطى ، وقد تجذرت عبر ثمانمائة سنة من التوسع الألماني لتتعقلن بقوة الفلاسفة الألمان في القرن التاسع عشر وتنتعش بالمفهوم « العضو البيولوجي » للدولة وتلبّس الايمان بالتفوق العنصري للألمان .

كما وأن تعرية معاني « الجيوبوليتكا » هنا تكشف النقاب عن نتاج للوسط والحتمية الجغرافيين[٢٨] مغلف بالشوفينية (٩٣) الألمانية ، التي اتخذت موقف اللارحمة واللاشفقة تجاه المجتمعات غير الألمانية ، التي اعتبرتها غريبة وبربرية . ويبدو هذا الموقف واضحاً وجلياً لدى بعض الكتاب أمثال «ايولد اينه » ، الذي ترجم كتابه في الموضوع الى الإنكليزية سنة ١٩٣٤ .

وكانت الشعارات محببة للجيوبوليتكيين ، فقد أخذوا عن راتزل عبارة « المدى الحيوي » . وكانت كل كلمة أو عبارة أو جملة تتعلق بالأرض أو جزء منها تتلبّس بالسياسة ، « كالحدود الآمنة » و« المدى السياسي » . وقد أدى الإستعمال المستمر والدائم لبعض هذه العبارات الى قولبة الضمير الألماني وفق السياسة الوطنية التوسعية التفوقية للنازية آنذاك .

هذا كما كانت الخريطة أهم وسيلة بيد الجيوبوليتكيين الذين كانوا يستعملونها بشكل رائع . فقد عرفوا قدر وأهمية وقيمة وبساطة فهم الخرائط فأكثروا منها ومن توزيعها ، إنما مقتصرة كل مرة على موضوع معين ليس إلا . وكانوا يرسمون الخرائط ، بحيث لا تعكس الواقع بل الهدف التوسعي المنشود ، مبررين حتى السهو

(٢٨) يراجع بهذا الخصوص الفصل الأول من القسم الأول .

الخريطة رقم ـ ٧ ـ

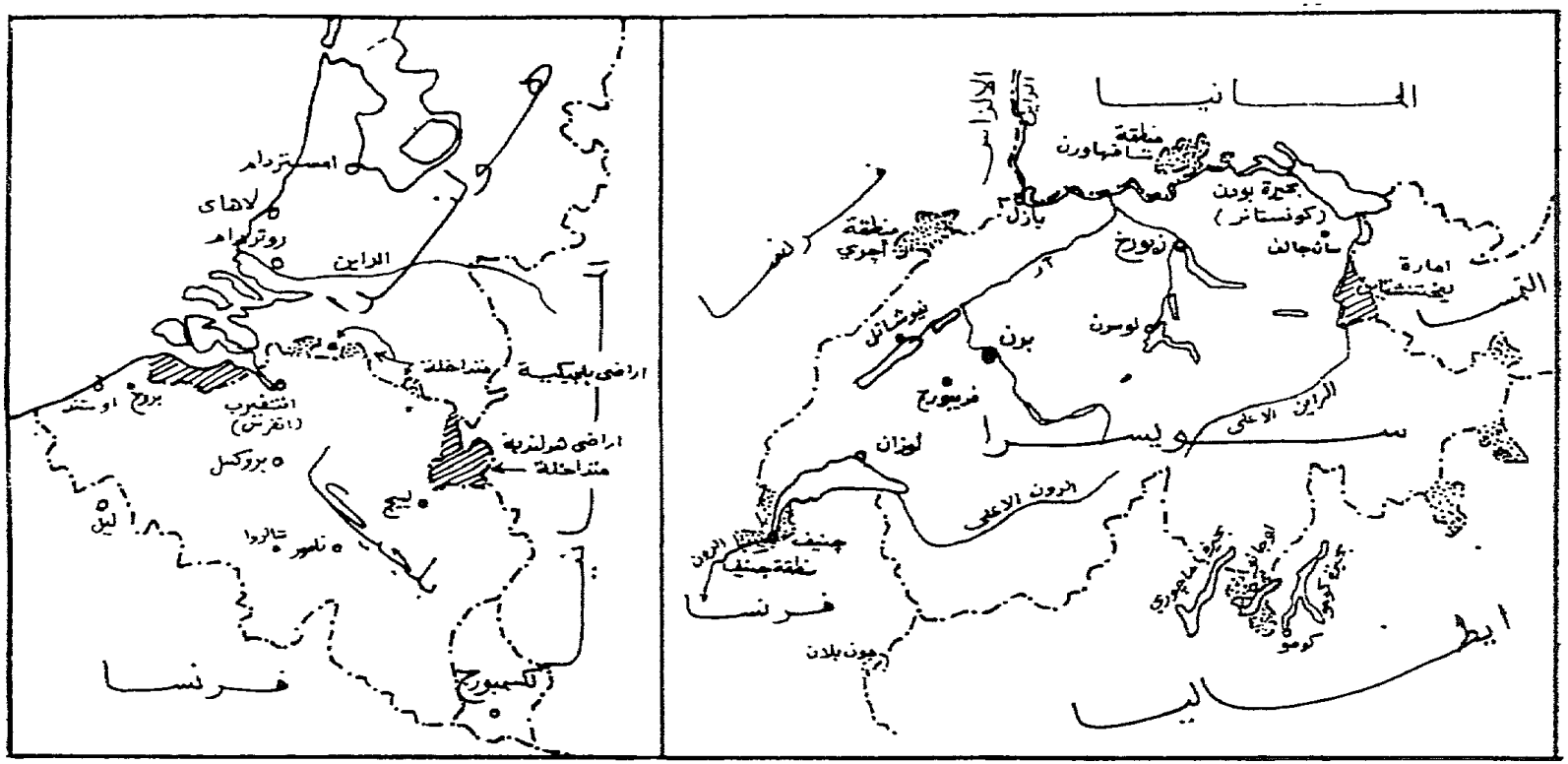

نماذج للحدود المتداخلة في أوروبا

نظراً لتعدد القوميات بوضوح فإن الحدود تتداخل بكثرة في معظم أجزاء أوروبا في المناطق التي يسودها الاستقرار كسويسرا وهولندا واسكندنافيا ويكون تداخلها مثاراً للنزاعات في المناطق التي لم تستقر كالبلقان .

والغلط المقصودين . وقد كان في أساس ذلك الاستراتيجية الألمانية لغزو العالم .

المغزى السياسي للجيوبوليتكا

رمى الجيوبوليتكيون ، بواسطة الدعاية والانتشار الواسع لنظريتهم ، الى كسب الجمهور الألماني الى جانب برنامجهم في السياسة الوطنية للإنبعاث وأيضاً كسب المتعاطفين في البلدان الأجنبية مع المخططات الألمانية في الخارج . وقد كانت الدعاوة التربوية إحدى اثنين من أهم الطرق التي يفضلونها لخطة بلوغ هدف التفوق الألماني . أما الطريق الآخر فقد وضع للوصول مباشرة الى أكبر عدد ممكن من المسؤولين الرسميين في الحكومة الألمانية ومساعدة الدولة لاستعادة موقعها كقوة كبيرة في الوكالات الدولية القائمة والتي أحدثت أيضاً .

الواقع أن هوسهوفر نفسه اتصل بأدولف هتلر خلال فترة أشهر من السنتين ٢٣ ـ ١٩٢٤ ، عندما كان فوهرر ألمانيا في المستقبل موقوفاً في سجن ميونيخ . وقد قضى هتلر هذه الخلوة القسرية في كتابة « كفاحي » بمساعدة رودولف هس ، الذي أصبح بسرعة من تلامذة ومؤيدي هوسهوفر . ولذلك فإلى الجيوبوليتكيين يعود عدد لا يستهان به من الأفكار التي ظهرت في « كفاحي » ، خصوصاً في قسم القضايا الخارجية .

وقد مكنت هوسهوفر علاقته القديمة والمشهورة بالقيادة العامة للجيش من الإتصال المباشر بالأشخاص الذين كانوا قيمين ، في العشرينات ، على إعادة بناء القوى العسكرية الألمانية . بالطبع لم تكن القيادة العامة بحاجة للاقتناع بأهمية الجغرافية في التكتيك والإستراتيجية العسكريين . وقد برهن الجيوبولتيكيون هنا عن معرفة شاملة ومعمقة لجغرافية العالم لأجل تنفيذ السياسة الاستراتيجية أو ما يسمى « بالإستراتيجية الكبرى » ، والتي تعتبر ركناً أساسياً في الحرب الشاملة ، وقد سموها « الجيوستراتيجي » (٩٤) .

من الناحية النظرية كانت الجيوستراتيجي فرعاً هاماً للجيوبوليتكا . وقد رأى هوسهوفر في الجيوبوليتكا وسيلة لتجديد ألمانيا ، كما رأى في حالة الحرب الحالة الطبيعية للبشرية . وقد تناولت الجيوستراتيجي حسنات الحرب كمجموع يتضمّن كل السكان والخيرات للدول المعنية . وقد اعترفت بالأثر النفسي للجغرافية ولميدان الحرب أيضاً على القوى المتصارعة وساعدت ألمانيا على أن تصبح الدولة الأولى التي جعلت القوى الجوية تأخذ مكانها الى جانب القوى البحرية والقوى البرية . ويقضي الإنصاف القول أن الجيوستراتيجي كانت الموضوع الأساسي للجيوبوليتكيين ومهدت بالتالي ، عبر الجيوبوليتكا ، الطريق للمفاهيم الحديثة للحرب الشاملة ، إن كان في هذا الإنصاف من مأثرة .

وهناك فروع أخرى للجيوبوليتكا مثل الجغرافية الطبية (الجيوطب) والجغرافية النفسية (الجيونفس) والجغرافية الحقوقية (الجيوحقوق) والجغرافية الاقتصادية (الجيواقتصاد) ، كتسميات معربة للجذر « جيو » مع الاسم التالي . إنما لم يكتمل فرع منها . فالجغرافية الطبية كانت تهتم بشكل رئيسي بالأمراض الناتجة عن الوسط الطبيعي . كما كان هذا الموضوع منذ القدم جزءاً من الجغرافية ، والجديد بالنسبة لألمانيا فيه هي أنها ضمته الى مخططات غزو المناطق الأجنبية وأدخلته في تمرين الجند والعملاء الممكن إرسالهم الى المناطق المعنية . أما الجغرافية النفسية فبدت كمحاولة لضم تفكير ونشاط الجنس البشري الفردي الى خط حتمية الوسط الجيوبوليتكية . وأما الجغرافية الحقوقية ، فعلى غرار العلوم السابقة ، فقد حاولت عقد التناغم بين القانون وحتمية الوسط . والجغرافية الاقتصادية نظّمت البحث عن الأحداث والمخططات للوكالات القائمة من أجل الأخذ بيد الدولة في تنظيم مقدرات حياة ألمانيا الإقتصادية .

مراكز الجيوبوليتكا العملية والتربوية

ولتنفيذ برنامجهم استعمل الجيوبوليتكيون مراكز التعليم العالي . فقد نظم هوسهوفر في جامعة ميونيخ « معهد الجيوبوليتكا » المعروف والأكثر ما يكون شهرة خارج ألمانيا كوسيلة للجيوبوليتكيين . وقد زوّد المعهد بالعديد من الاختصاصيين المتفرغين في الجغرافية والحقول الملاصقة لها ، حيث كان يجري جمع وفرز وتبويب المعلومات المفصلة عن كل جزء في العالم ، من المناخ وخصائص المساحة والموارد الطبيعية الى نظام المواصلات والإنتاج الاقتصادي والتنظيم السياسي والإجتماعي .

وقد كان العمل في المعهد يتضمن كلاً من البحث والتخطيط . وقد أخذت بنشاطات هذا المعهد في سنة ١٩٣٥ الحكومة النازية ، التي بدأت تهتم بالتخطيط. وهنا لا بد من الإشارة إلى أسماء بعض المؤسسات التي ظهرت في هذا الحقل وكانت ملحقة بالوزارات وهي « المكتب الوطني للبحث والتخطيط في المدى الحيوي » وأيضاً « مركز التخطيط الوطني » .

وقد أصبحت جامعة « هيدلبرغ » مركزاً لجمعية العاملين في الجيوبوليتكا ، وهي المنظمة التي تضم كل المهتمين بالجيوبوليتكا في الجامعات الألمانية . وقد ترأس هوسهوفر هذه الجمعية بعض الوقت . وكانت الجمعية تقود دراسة الجيوبوليتكا على المستوى الجامعي . كما احتكر أعضاؤها دور النشر الألمانية لأجل نشر موضوعاتهم . وقد أدت مشاريع هوسهوفر الشاملة المتكاملة في التربية والنشاط العملي الى خلق « جمعية المعلمين الاشتراكية الوطنية » التابعة لوزارة الدعاية في الرايخ الألماني . كما حوت هذه الجمعية مجموعتين للدراسة ، الأولى لإعداد مدرسي المدارس الوسطى من

اجل تقديم الأرض : الوطن الأم ومصطلحات الجيوبوليتكا ، والثانية لإعداد أساتذة المدارس العليا من أجل التعريف بالبلدان الأجنبية .

هذا وقد أصبح ألبرت ابن هوسهوفر أستاذاً للجيوبوليتكا في المدرسة العليا للسياسة في برلين . وخلال الفترة الممتدة من سنة ١٩٤١ الى سنة ١٩٤٣ كتب الجزء الأول من دراسة في موضوع الجغرافية السياسية والجيوبوليتكا ، وقد نشرت بعد موته في سنة ١٩٥١ . وقد أعدم ألبرت هوسهوفر من قبل الغستابو في ابريل سنة ١٩٤٥ لاشتراكه في نشاط المقاومة السرية ضد هتلر . أما كارل هوسهوفر الأب فقد انتحر في سنة ١٩٤٦ . وبذلك انتهت المأساة البشرية لعائلة هوسهوفر .

نتائج الجيوبوليتكا في ألمانيا

أكبر دليل على كبير تأثير الجيوبوليتكا في ألمانيا هو الدعم الرسمي الذي حظيت به . ولم يوجد في جمهورية « ويمار » ما جرى الحديث عنه كما جرى عن الفلسفة الوطنية وأهداف الجيوبوليتكا . وعندما انتصر الحزب النازي في سنة ١٩٣٣ وتسلم السلطة ، أعلنت الجيوبوليتكا بشكل رسمي عقيدة للفاشية الألمانية . وعلى أثر ذلك في الحال وقعت الجغرافية الألمانية تحت ضغط الجيوبوليتكا وضاعت فيها . والعاملون في حقل الجغرافية ممّن لم يلحقوا بالزعيم الجديد ، إما انسحبوا الى ميدان الجغرافية الطبيعية ، حيث البعد الهادىء عن التفسيرات السياسية أو الزموا الصمت عن طريق رفض نشر منتجاتهم أو السماح لهم بإلقاء المحاضرات .

وبقي الجوبوليتكيون أحراراً لوحدهم في النشر عن مظاهر الجغرافية التي تهتم بالبشر . وكانوا يستمدون الكثير من هوسهوفر . فعبر هؤلاء المذكورين المجهولين وعبر علاقاته السياسية التي عرف أن يستغلها وكذلك المؤسسة التي ترأسها ، تسلط هوسهوفر بشكل كلي مطلق على هذا النوع الجديد من الجغرافية الألمانية . ولذلك فما تبقى من الجغرافية كعلم أصبح دعاية في اللهجة وغير محتمل وفاشياً بالشكل والمضمون وغير مستند الى الحقيقة والوقائع على يد هؤلاء المؤلفين الجدد الذين ذكرنا .

هذا وسقوط ألمانيا النازية استبعد الجيوبوليتكا من الخريطة العقائدية لألمانية الجديدة ، كما أطفأ شعلة الفلسفة « النازية الوحشية » . لكن الانتعاش ولو بضعف عاودها مع الوقت ، إذ عادت الى الصدور في سنة ١٩٥١ « مجلة الجيوبوليتكا » وظهرت الجبهة الفاشية لدراسة الجيوبوليتكا في سنة ١٩٥٤ . فإفلاس الجيوبوليتكا الألمانية ، الذي استبعد حتى الدراسات المشروعة ، في الجغرافية السياسية ، في ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ، لم يكن إلّا مؤقتاً ولفترة قصيرة للغاية ، سيما وأن هناك محاولات لإعادة الجيوبوليتكا الى الوجود تحت ستار الجغرافية السياسية ، إحدى المعاني التي كانت تستعمل بها . وهذا لا يقتصر على ألمانيا ، بل تشارك فيه انكلترا والولايات

المتحدة الاميركية ، حيث استعملت الأوساط العسكرية في هذه البلدان الامبريالية الجيوبوليتكا بمثابة الوسيط الايديولوجي لعسكرة بلدانها والقيام بالأعمال العدوانية ضد الدول الاشتراكية وبلدان العالم الثالث .

فالجغرافية الصحيحة كان بإمكانها أن تضع في الأفق الصحيح القوة النسبية للدول بالنسبة للموقع الإستراتيجي والموارد الطبيعية والطاقة الإنتاجية ، وكانت قد نبّهت الى أن الوسط الطبيعي ليس بقادر على رسم طريق النشاط البشري بحتمية . فالجيوبوليتكيون جعلوا القوة السياسية تعتمد كلياً على الثروة المادية المعدودة احصائياً ، وهذا هو الغلط الكبير . فقد جمعوا كل المصادر الطبيعية في البلاد وضربوها بكثافة الاستعمال . كما اهتموا بتعداد السكان ، واستناداً الى ذلك قدروا القوة السياسية والعسكرية للبلدان . وبالتالي فقد استبعدوا من حسابهم العامل المعنوي ، عامل القوى المتأتية عن تعايش الناس في الوطن الواحد . بالإضافة الى ذلك فأسطورة التفوق العنصري الألماني أعمت أبصارهم عن القوى الكامنة لدى غير الألمان كأفراد وشعوب .

واتّضحت مع الوقت أهداف الجيوبوليتكيين الحربية . فقد كانوا يخططون لانتعاش القومية الألمانية وسيطرتها على العالم ، بعد غزوه بحرب واحدة . فتحت شعار العرق والأرض تعلم الألمان من قبل قادتهم النازيين الافتخار بإيمانهم بالتفوق العنصري على كل الشعوب وتوقعهم السيطرة على كل أراضي العالم ، على أثر غزوة أخرى في الأجيال القادمة . وفيما كان هتلر يثمر الشعور العنصري كان هوسهوفر ، المتزوج من امرأة من أصل يهودي ، يركز على أهمية الأرض . فقد التحق بالعنصرية شكلياً ، بالرغم من سماحه بنشر المقالات الجغرافية التي تتبنى الفلسفة العنصرية للرايخ الثالث .

وفي إطار « حقلها الخاص » جعلت الجيوبوليتكا من نفسها المبرر الشرعي لألمانيا في حروبها لضم أراضي الغير . فمن كجلين استعارت مفهوم الإكتفاء الذاتي اقتصادياً (Autarcie) ، مع الإشارة إلى استحالة هذه السياسة الإقتصادية عملياً على الدول في عالم اليوم المتشابك ، باستثناء الكبيرة منها والحاوية على معظم ما تحتاج اليه ، مع نسبية ذلك أيضاً بالطبع . ومن راتزل استعارت الجيوبوليتكا مفهوم المدى الحيوي . وهذا الأخير حدده الجيوبوليتكيون الألمان كحق الدولة الألمانية ، الكائن العضوي في الإمتداد لحدود رغباتها . وأهم ما استعارته الجيوبوليتكا هنا هو مفهوم البريطاني السير « هارفرد مكندر » (١٨٦١ ـ ١٩٤٧) عن « الأراضي الداخلية » (أنظر ما سلف في الموضوع : مكندر والجزيرة العالمية والخريطة رقم ـ ٨ ـ) .

بالإضافة الى ما ذكرنا فقد استعار الجيوبوليتكيون الألمان من حركة الألمان العالمية

خريطة رقم ـ ٨ ـ

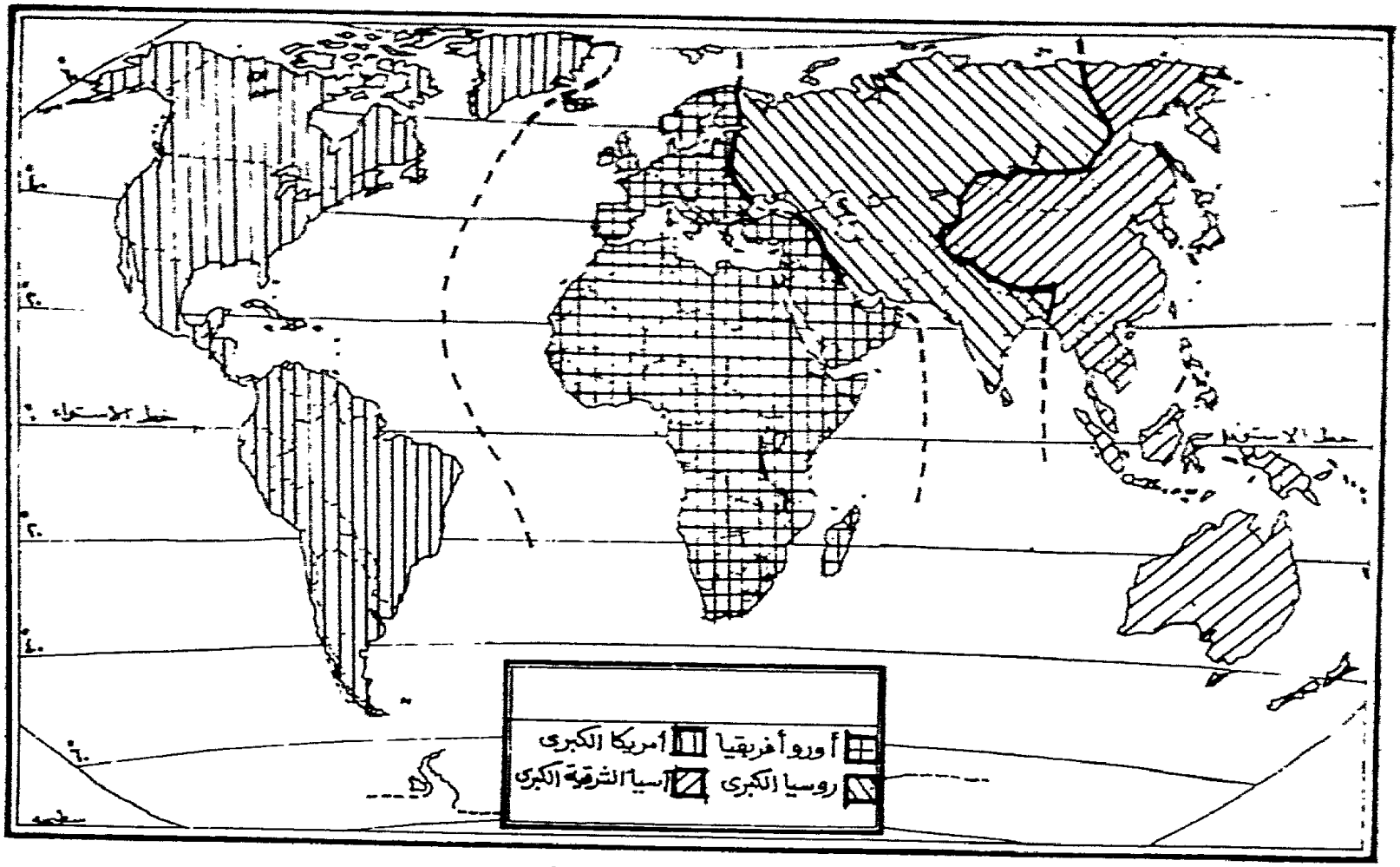

العالم في الفكر الجيوبوليتكي الألماني

(Pan German) فكرة « المناطق العالمية » ، مبتدئين بالسيطرة على أوروبا الوسطى ثم أوروبا وافريقيا كخطوة لغزو العالم . وبالإستناد الى التاريخ السياسي الألماني وراتزل وضع هوسهوفر نفسه النظرية القائلة بأن الحدود السياسية هي مجرد التوقف المؤقت للأمة في حالة الحرب وفي طريقها نحو الغزو وضم أراضي الآخرين غير المحدّد .

يتّضح من كل هذه الإستعارات ، التي استعرضنا وبسرعة ، أن الجيوبوليتكا لا تشكل نظرية قائمة بحد ذاتها ، بل هي انتقائية (٩٥) وبشكل برغماتي (٩٦) للغاية ، بحيث يظهر غشها العلمي قبل كذبها العملي الفاضح . فهي أبعد ما تكون عن نظام فلسفي متماسك يبرر ما يطلق من نظريات منسجمة مع بعضها البعض . فالواقع ومما استعرضنا من استعارات يتضح أنها كانت تأخذ من الغير ما يبرر طموحات الرايخ الثالث في عملية غزو العالم والسيطرة عليه . ولذلك فهي أبعد ما تكون عن العلم وأقرب ما تكون الى الكذب إن لم يكن الكذب نفسه . يضاف الى ذلك التفكير الميكانيكي الذي ينتاب النظريات التي تأخذ بها كنظرية مكندر مثلاً وبالتالي تفكيرها هي وبعدها عن المنطق المتحرك ـ المنطق الجدلي ـ الذي يرى ديناميكية المجتمعات في الحكم عليها ، في حين أنها ـ الجيوبوليتكا ـ لأخذها بالمنطق الذي ذكرنا لا ترى هذه الديناميكية في المجتمعات ، سيما وأن التعالي نتيجة العنصرية وحسبان ما ليس بالعلم علماً يجعلها تخطىء في محاكماتها ، بالإضافة للاستعداد النفسي لذلك كما أسلفنا .

هذا وقد لعبت الجيوبوليتكا في دعاوتها دور المساعد والمخرج العملي لديماغوجية هتلر . وبما أن ألمانيا كان عليها أن تقوم بحرب عدوانية فقد لعبت الجيوبوليتكا دوراً مساعداً لقادة الحزب النازي في تعبئة الجماهير التي ستكون وقوداً لهذه الحرب وهي غير واعية حقيقة واقع الحال . وقد دخلت الجيوبوليتكا ، وكما مرّ معنا ، في نظام التدريس ، وعلى مراحل حتى الجامعة ، الأمر الذي أدى الى تعصب أعمى لها لدى الأجيال الطالعة ، التي سوف تتحمل أعباء الحرب . وقد توصلت الدعاوة هنا الى تبرير الاعتداء العسكري لدرجة اعتباره أمراً طبيعياً وحتى علمياً ولا مندوحة عنه . كما ساعدت على مزج كل فئات الاعمار وحتى الطبقات الإجتماعية في بوتقة الأمة المتفوقة ، إنما يستثنى هنا بالطبع من غادر ألمانيا رفضاً لهذا الواقع واحتجاجاً عليه ومن بقي في الوضع السري من مؤسسات وأفراد . وبنفس الطريقة اقنعت المتعاطفين والخائنين في البلدان المجاورة بالتعاون مع الألمان ، الأمر الذي مهّد الطريق لفتوحات القيادة العامة للجيش الألماني .

هذا والمعلومات التي كانت تتجمع لدى وكالات الجيوبوليتكا ، وبشكل خاص معهدها في ميونيخ ، كل هذه ساعدت بشكل مباشر في وضع خطط الحرب الألمانية . والنجاحات العسكرية التي أدهشت العالم في ١٩٤١ كانت التنفيذ العملي للمخططات التي نشرها الجيوبوليتكيون الألمان سابقاً . فالواقع ان برنامج الغزو المنشور هذا كان

جريئاً لدرجة أن بدا للدول الأخرى غير واقعي وأقرب شيء الى الحلم . وبالتالي فالدول التي كان بإمكانها وقف زحف الألمان لم تتخذ الخطوات اللازمة في حينه ، الأمر الذي أدى الى الصراع العالمي .

إنما لا بد من الإستدراك مباشرة هنا تجاه هذا الرأي الشائع والذي تأخذ به الموسوعة البريطانية والقول ان الإنصاف يقتضي النظر ومحاكمة هذا التقييم بالإستناد الى الخريطة الطبقية للمجتمع الأوروبي آنذاك ، حيث يتّضح ضلوع الطبقات البورجوازية الحاكمة ، في البلدان التي تحاربت فيما بعد مع ألمانيا ، في مؤامرة هتلر وتشجيعه على الإستمرار في مخططاته بتساهلها اللامحدود تجاهه في بولونيا وتشكسلوفاكيا فيما بعد . فحسن النية لهذه الدرجة وتفسير الأمور بهذه البساطة والسطحية يتنافيان والعلم . فالواقع ان البورجوازية الأوروبية كانت تخشى هتلر بقدر ما تخشى الطبقة العاملة الصاعدة في بلادها ، وكانت تتردد بين واجباتها القومية ومصالحها الطبقية ، فضحّت لفترة بالأولى ، لكنها تداركت فيما بعد الوضع وعادت الى المصلحة القومية وحق الطبقية على نفس المستوى في عملية الصراع بين الرأسماليين على مستوى الدول ، تخوفاً من سيطرة الرايخ الثالث العالمية . ونتج عن ذلك مقروناً بزج الإتحاد السوفييتي في الصراع رجحان كفة « قوى الديمقراطية » تجاه قوى الفاشية ، التي لقيت حتفها في نهاية المطاف .

هذا وتجدر الإشارة هنا الى أن فشل الغزو الألماني للاتحاد السوفييتي قد تنبأ به الجيوبوليتكيون نظرياً . فهوسهوفر نفسه كان يخشى روسيا . وقد كان يرى أحد تلامذة مكندر ضرورة ضم قوة ألمانيا لجارتها روسيا ، وقد سر للغاية بمعاهدة آب سنة ١٩٣٩ فيما بين ألمانيا والإتحاد السوفييتي ، ثم صمت على أثر اعتداء ألمانيا على الإتحاد السوفييتي في سنة ١٩٤١ . وقد أتت نتائج هذا الإعتداء تؤكد نظرته الأولى في الموضوع .

بالطبع لا نريد التعليق الطويل هنا حول هذه النقطة التي شرحنا الرأي الميكانيكي السردي حولها والذي يستند الى نظرية مكندر الجغرافية الآنفة الذكر والجامدة لدرجة استاتيكية والتي شوهت علم الجغرافية ، بل نكتفي بالنظر الى الواقع الإجتماعي للمجتمع الإشتراكي الجديد ، الذي جعل من روسيا بلداً صناعياً جديداً وهو الإتحاد السوفييتي ، وكذلك النظر الى المجتمع الجديد مجتمع العمال والفلاحين ، أصحاب المصلحة المباشرة في الدفاع عن وطنهم الجديد ـ الوطن السوفييتي ـ لدرجة الإستماتة من حمايته بوجه الغزو الفاشي الوحشي ، هذا الخطر الذي يكشف النقاب عن حقيقة فشل الغزو الكامن في المجتمع الجديد وليس في استاتيكية نظرية مكندر التي لا تستند الى منطق ومحاكمة .

أثر الجيوبوليتكا خارج ألمانيا

إن البلد الوحيد ، الذي اعتمد الجيوبوليتكا بنفس المستوى والقوة التي اعتمدت بها في ألمانيا ، هو اليابان . فاليابان كألمانيا تكونت مع الزمن ، عبر تاريخ طويل من الغزوات الحربية . وقد قامت التقاليد العسكرية اليابانية على أساس غزو العالم بالإستناد الى برنامج « الغربنة » (التشبه بحضارة الغرب وتمثلها) بعد سنة ١٨٦٨ . وبالتالي فأهداف الجيوبوليتكا كانت قريبة كل القرب من التفكير الياباني . هذا بالإضافة الى كون هوسهوفر كان متحمساً لليابان ، الأمر الذي أدى الى الإنتشار الواسع لأفكاره فيها ، وقد أشار هوسهوفر إلى أن اليابان تجسد النموذج الأمثل لعقيدة الجيوبوليتكا ، بالرغم من إشارته الى بعض نقاط الضعف في المحيط الياباني وفي سياسة الحكومة اليابانية . فخلال الفترة الممتدة من سنة ١٩١٣ و١٩٣٨ كتب هوسهوفر ستة مؤلفات عن اليابان وحدها . هذا الى جانب المقالات التي تناولت الشرق بأكمله وبشكل موسّع والتعليقات في مجلته الشهرية . وقد ترجم بعض مؤلفاته الى اليابانية . كما قامت الجيوبوليتكا ومورست من قبل مجموعة ناشطة مستمدة من الجغرافيين اليابان وعلماء السياسة اليابان أيضاً .

أما إيطاليا الفاشية فقد تجانس برنامج توسعها الجغرافي مع الجيوبوليتكا الى أبعد الحدود ، سيما فيما يعود لإدعائها السيطرة المطلقة على البحر الأبيض المتوسط ، الذي سمي « بحرنا » (Nostromare) . إنما الجيوبوليتكيون الألمان لم يترددوا في الإشارة الى نقط الضعف الداخلية في ايطاليا كقوة ضاربة كبيرة ، وأيضاً ، وهذا هو الأهم ، واقع كونها تعترض طريق التوسع الألماني . إنما لا بد من القول ان الجيوبوليتكا لم تتمكن من تصورات وأحلام أي قسم أو طبقة من الشعب الإيطالي .

أما في فرنسا فكتابات راتزل كان لها كبير الأثر في بعض كبار أنصار الجغرافية البشرية أمثال « ب. فيدال دي لابلانش (٩٧) ١٨٤٥ - ١٩١٨) و« ج. بروتهز » و« س. فالو » ، الذين تضمن نظامهم في الجغرافية الاجتماعية الكثير من آراء راتزل ، لكنهم رفضوا الإنسياق في طريق الجيوبوليتكيين الألمان الخطر للوسط وحتميته . وهذا الرفض لشبه العلم عبر عنه كل من « أ. دمنجون » و« ج. أنسل » في كتاباتها . وهذا دليل على حيوية التقاليد الديمقراطية في الشعب الفرنسي وماضيه الثوري (١٧٨٩ ، ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ، ١٨٧٠) في الحفاظ على هذه الديمقراطية ، التي تجذّرت في النظرية والنشاط العملي ، بحيث استحال تواجد الجيوليتكا حتى في مجرد المجال النظري ، على اعتبار أن في العملي وجد من قام لمناهضة افرازات الجيوبوليتكا العملية ، عنينا الفاشية ، ونكتفي هنا بذكر الجبهة الشعبية وجبهة مناهضة الفاشية في فرنسا

القوى البحرية في الجيوبوليتكا (ماهان ، سبيكمان)

الواقع ان الحرب العالمية الأولى كانت مناسبة لتنشيط الجيوبوليتكا في الولايات المتحدة الاميركية . فحكومة الولايات المتحدة كلفت عدداً كبيراً من الجغرافيين الاميركيين بالقيام بدراسات للمشكلات الأوروبية ، سواءً أكان ذلك في المراحل التمهيدية في الجمعية الجغرافية الاميركية أو سواءاً أكان ذلك بصفتهم أعضاء في وفد الرئيس ويلسون في مؤتمر السلام(٢٩) .

هذا وقد كان بوين رائداً للجغرافيين الاميركيين في الموضوع . كما يعتبر كتابه «العالم الجديد »(٣٠) مرجعاً رئيسياً لمشكلات ما بعد الحرب العالمية الأولى ، خصوصاً وأن صاحبه كان من المتخصصين القلائل في مفاوضات الصلح عقب الحرب العالمية الأولى ، كما كان مستشاراً للرئيس روزفلت أثناء الحرب العالمية الثانية(٣١) (٩٨).

وهناك مجموعة من الجيوبوليتكيين ، منهم ماهان وسبيكمان ، رأت في القوى البحرية أفضلية تمكنها من السيطرة العالمية . وهذا عكس رأي راتزل ومكندر وهوسهوفر مع مدرسة ميونيخ في افتراض السيطرة المتعاظمة للقوى البرية .

هذا وقائد البحر الاميركي الاميرال الفرد ماهان (A.T. Mahan) (١٨٤٠ - ١٩١٤) هو أقدم هؤلاء الجيوبوليتكيين المحدثين . وقد نال شهرة كمؤرخ وكذلك كإستراتيجي ممتاز . إذن فماهان لم يكن جغرافياً لكنه تعرض في دراساته للموقع الجغرافي وأثره في نمو السيطرة البحرية . فقد أوضح كبير أهمية الموقع البحري ودوره في تاريخ الدولة ، فرأى أن العامل الجغرافي الرئيسي للقوة الذاتية لأي دولة ليست في مساحتها الكبيرة بالأميال المربعة أو بالكيلومترات المربعة بقدر ما هو في طول خطوط سواحلها وطبيعة موانئها . وهو يعني بالقوة البحرية الأسطول البحري مع القوة العسكرية التي يمكنه نقلها بالبحر الى المكان المطلوب . وبالتالي فالتحكم بالبحار يعني بالنسبة اليه التحكم بالقواعد البرية التي تتميز بالمواقع الاستراتيجية المتحكمة بالنقل البحري وكذلك القواعد البحرية المحمية بأشكال السواحل من جهة وعمق الخلفية الأرضية من جهة ثانية . لنتذكر بهذا الصدد رودوس وقبرص وجبل طارق وقناة السويس وقناة بناما وغيرها .

وعندما يشمل ماهان العالم كله بنظرته الاستراتيجية يصبح للسيطرة البحرية أهمية كبيرة وذات طابع جغرافي أكبر . وقد تجلّت هذه النظرة الجغرافية الجيوبوليتيكية لديه ولأول مرة في كتابه « مشكلات آسيا » ، الذي نشر عام ١٩٠٠ ، حيث التركيز

---

(٢٩) R. Hartshorne, American Geography Inventory Prospects, Syracuse, 1954, p. 170

(٣٠) I. Bowman , The New World , Problems in Political Geography, New York 1921.

(٣١) د. محمد عبد الغني سعودي ـ الجغرافيا والمشكلات الدولية ، ص ١٣

الـواضح عـلى مشكلات أوروآسيـا[٣٢] . وقد رأى مـاهان أن القـارات الشماليـة هي مفتاح السيطرة العالمية وأن قناتي السويس وبنـاما همـا الحدود الجنـوبية لعـالم الشمال ، حيث التكاثف في الحركة التجارية وكذلك السياسة العالمية .

كما يؤكد مـاهان عـلى كون أوروآسيـا هي الجزء الأهم في العـالم الشمالي وكـون روسيا تحتل موقعاً أرضياً مسيطراً في آسيا يمنحها المنعة في وجه المهاجمين ولدرجة يستحيل غزوها . ومع ذلك فهو يرى في هذا الموقع الأرضي المنيع سيئة كبيرة وهي في كونه كتلة أرضية حبيسة .

ويرى ماهـان في المناطق الأسيـوية بـين خطوط العـرض ٣٠ و٤٠ درجة شمـالاً مناطق الإحتكاك والصراع بين روسيا وبريطانيا ـ بين القوى البرية والقـوى البحريـة . هذا وبما أنه كان على قناعة بأن القوى البحرية هي مفتاح السيطرة العالميـة ، كما سلف ذكـره ، فقد تنبـأ بإمكـان التحالف البـريطاني الاميـركي الوصـول الى السيادة العـالمية بـواسطة قـواعد عسكـرية تحيط بـأوروآسيا نـظراً لتفوق الحـركة البحـرية عـلى الحركـة البرية .

وبـأكثر من الملمـوسية والتفصيـل فقد تحـدث ماهـان عن تحالف بـين الولايـات المتحدة وبريطانيا فألمانيا واليابان موجـه ضد روسيـا والصين . وبـالتالي فقـد كتب قبل مكنـدر عن أهمية الجـزيرة العـالمية (أورو ـ آسيـا) وعن الهرتـلاند (روسيـا) . لكنـه توصل الى نتائج هي عكس النتائج التي توصل اليها مكندر . وتعليل ذلك من الممكن أن يكون ، قبل كل شيء ، كونه رجل بحر وعلى قناعة مـطلقة بـأولويـة الاستراتيجيـة البحرية ، ثم كونه كان متأثراً ، من دون شك ، بـالأحداث والأحـوال السياسيـة التي عاصر ، حيث كانت بريطانيا في قمة مجدها العالمي ؛ مستندة في ذلك الى موقع جزري آمن (قاعدة بحرية ذات عمق أرضي) وحائزة على أكبر أسطول بحري حربي وتجاري في العالم ، مع قـواعد حـربية هـامة عنـد مداخل البحار وعـلى طول شـرايين التجـارة البحرية العالمية . كذلك تنبؤه ببزوغ نجم أميركـا يعود الى كـونها دولة شـاسعة بشكـل جزيرة ضخمة آمنة من أحداث وقوى أوروآسيا .

وبناء عليه فقد أهاب ماهان ببـلاده كيما تـولي اهتمامـاً كبيراً بحـدودها البحـرية ولعب دوراً بارزاً كبيراً في الدعوة لانشاء أسطول أميركي وشق قناة بناما والحصول على قواعد بحرية أميركية في الخارج (احتلال الفليبين سنة ١٨٩٨ بعد الحرب مـع اسبانيـا وهزيمتها وفرض الحماية على جزيرة كوبا واحتـلال جزر جـوام وهواي في وسط المحيط

(٣٢) A.T. Mahan, the Problems of Azia and its effects upon International policies, Boston 1900

الهادي وامتلاك بورتوريكو لتأمين الملاحة في الكارايبي)[٣٣] . وبالتالي ففي ذلك دليل على إمكانية الآراء الجيوبوليتيكية خدمة مصالح الدولة ، على غرار ما فعل هوسهوفر وربما كان الفرق بين ما هان وهوسهوفر في هزيمة ألمانيا[٣٤] .

والآن لا بد لنا قبل الإنتقال الى سبيكمان من وضع بعض النقاط على حروف ما استعرضنا من آراء لدى ماهان .

واضح هنا أننا تجاه الحتمية الجغرافية وبالتالي التاريخية من جراء تقسيم العالم الى القارات الشمالية والجنوبية ، والذي لمسناه في القوى البرية في الجيوبوليتكا عند الجيوبوليتيكيين الألمان . هذا في حين أن حقيقة التفوق ، الذي يمكّن من السيطرة العالمية ، تكمن في كون الشمال يتألف على الإجمال من بلدان متقدمة والجنوب من بلدان متخلفة ـ بلدان العالم الثالث . وبالتالي فليس التواجد الجغرافي ـ الحتمية الجغرافية ـ هو المحدد والمقرر في نهاية المطاف إنما مستوى التطور الإقتصادي الناتج عن طريقة انتاج الخيرات المادية لدى البلدان المتقدمة والذي يمكّنها من التفوق ، حيث يصبح التواجد الجغرافي مساعداً ليس إلا ، وحتى شبه منتوج إجتماعي لمستوى تطورها الإقتصادي ـ الإجتماعي بكلمة الحضاري .

هذا كما أن تفوق الحركة البحرية على الحركة البرية لدى بريطانيا والولايات المتحدة لا يعود للبحر وسهولة التحرك عليه بالنسبة للبر وصعوبة التحرك عليه وأحياناً حتى الانحباس ، بل التفوق هنا في الحركة البحرية يعود للعمق البحري لدى الولايات المتحدة وكذلك لدى بريطانيا ، حيث يعوض التوازن مع حليفتها بمستعمراتها آنذاك . مضافاً في واقع الحال الى هذه الحركة الأهم وهو المستوى الرفيع للتطور الإقتصادي فيهما والذي يمدهما بإمكانية الحركة البحرية المذكورة والمصحوبة بالطبع بالتطور الحربي المتفوق والذي يجب أن يكون متفوقاً على مستوى التطور لدى القوى البرية . وهنا للقواعد البحرية كبير الدور المساعد ، على اعتبار أنها تأتت عن التفوق الإقتصادي الذي أعطى التفوق الحربي ، الذي مكن من السيطرة على هذه القواعد كمراكز أو محطات لماكينة السيطرة العالمية للحركة البحرية .

فالواقع ان تفوق بريطانيا آنذاك لا يعود للشكل والقواعد فقط وإنما لمستوى التطور الإقتصادي وبالتالي الحربي ، الذي مكّنها من السيطرة على هذه القواعد والحفاظ عليها والإستمرار بالتطور .

---

(٣٣) د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ١٠٥ وكذلك د. فتحي محمد أبو عيانة ، دراسات في الجغرافية السياسية ، ص ٣٧ .

(٣٤) المرجع نفسه .

أما اعتبار هزيمة ألمانيا كمؤشر للفرق بين ماهان وهوسهوفر بالنسبة لدور الآراء الجيوبوليتيكية في خدمة مصالح الدولة فأمر في منتهى التبسيطية وأحادي الجانب . بمعنى آخر ان الآراء الجيوبوليتيكية لم تهبط من السماء ، فهي على علاقة جدلية بالتطور الإقتصادي للبلاد وتأتي لتنظّر ما يحتاجه هذا الإقتصاد في تطوره وهو يسيطر على الدولة ـ عبر طبقته البورجوازية ـ التي هي بمثابة السلطة السياسية للطبقة المسيطرة اقتصادياً . وهذا يفضح بالتالي الآراء الجيوبوليتيكية ـ التعبير التنظيري لمصالح هذه الطبقة المسيطرة ـ اقتصادياً وسياسياً ـ في امتدادها الإقتصادي ، وتأمين سيطرتها وتوسعها الإقتصادي في المدى الجغرافي ، حيث لم تصطدم الولايات المتحدة بقوة عظمى (اسبانيا كانت في طور التقهقر) توقفها عن توسعها ، سيما في البحر ، في حين أن ألمانيا اصطدمت في البر الأوروبي ، مجال امتدادها المباشر والوحيد بعد ان استعمر العالم بكامله بقوة مثيلة سواءً أكان ذلك في الشرق حيث الإتحاد السوفييتي أم الغرب حيث بريطانيا مع حلفائها ، ولو بعد تلكؤ ، كما سبق وشرحنا ذلك في العمق المضموني وليس بالشكل السطحي .

والآن بإمكاننا الإنتقال الى نيقولا سبيكمان (١٨٩٣ ـ ١٩٤٣) (N. Spykman) خليفة ماهان في استراتيجيته التي تقوم على مناهضة تفوق الهرتلاند وسيادته . لكنه مع ذلك لم يتفق مع ماهان في سيادة القوى البحرية وبقي متأثراً في كل أفكاره وبعمق بمكندر بكل شيء ما عدا النتائج السياسية .

لقد كان سبيكمان يخشى سيطرة ألمانيا على القارة الأوروبية ومن ثم على الهرتلاند الأوروآسيوي فالسيطرة على العالم . ولذلك فقد كان يرمي الى عقد محالفة بين الولايات المتحدة وبريطانيا كقوة بحرية والإتحاد السوفييتي كقوة برية لفرض منع ألمانيا من تنفيذ مخططها العالمي .

كما رأى سبيكمان في الهلال الهامشي الذي يحيط بالهرتلاند عند مكندر مفتاح السياسة العالمية فسماه الإطار (Rimland) أو الحافة التي تضم أوروبا البحرية (الغربية) والشرق الأوسط والهند وجنوب آسيا والصين . وهذا الإطار ، الذي يشمل الدول الواقعة بين الإتحاد السوفييتي والدول الغربية البحرية ، يحتوي العدد الكبير من السكان ومصادر الثروة إضافة الى استخدام البحر كخطوط حركة أساسية للتجارة والحرب[٣٥] (أنظر الخريطتين رقم ـ٩ـ و ـ١٠ـ) .

---

(٣٥) بتصرف عن د. محمد رياض ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ١٠٥ ـ ١٠٦ .

الخريطة رقم - ٩ -

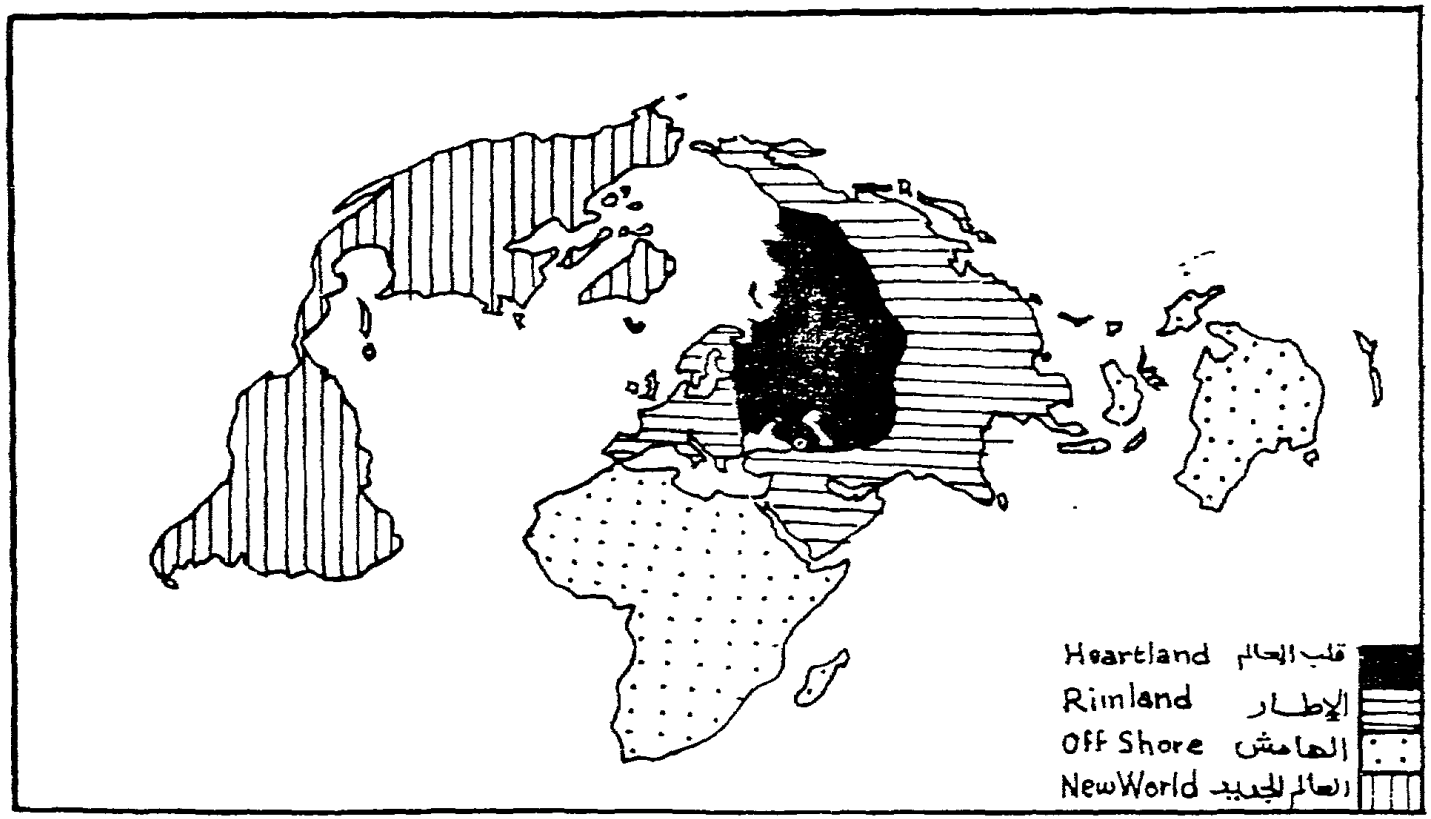

عالم سبيكمان ١٩٤٤

الخريطة رقم - ١٠ -

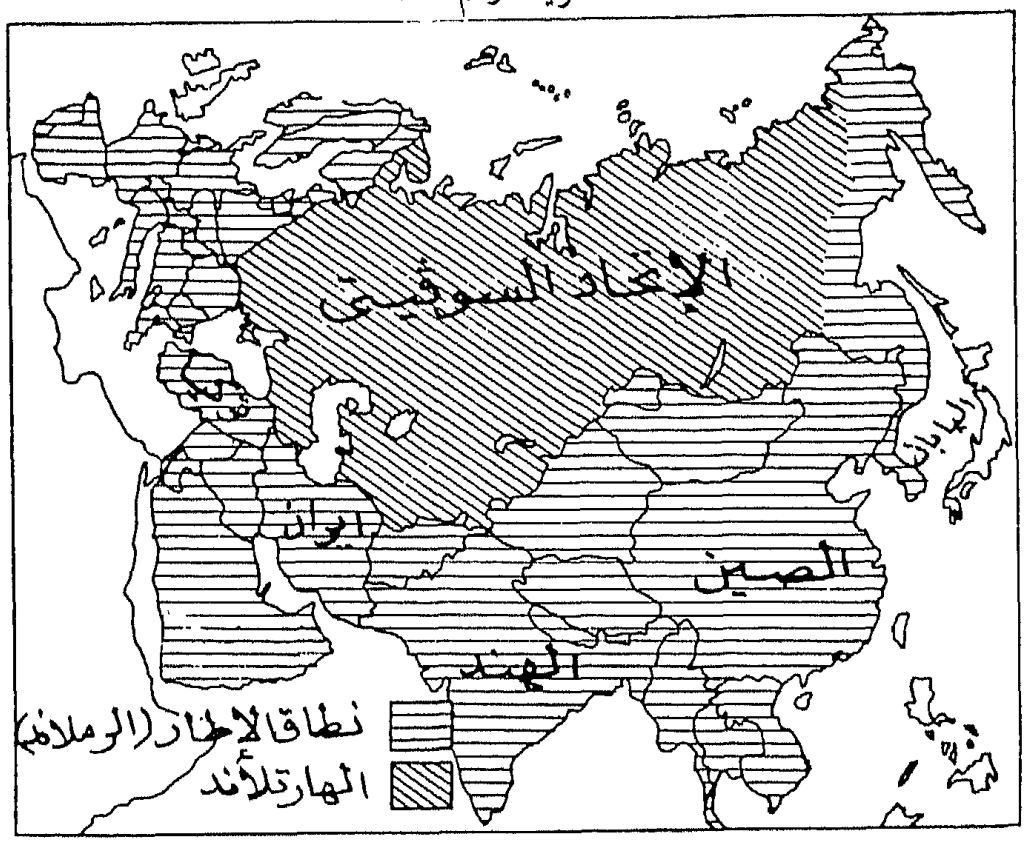

نظرية الإطار لسبيكمان

في الحقيقة فإن سبيكمان في كتاباته[٣٦] في الموضوع يتبنى آراء مكندر لكنه يعكس النتائج بقوله : « من يحكم الإطار يحكم أوروآسيا ، ومن يحكم أوروآسيا يتحكم في مصير العالم »[٣٧] (٩٩) . على أن تقطع الإطار المذكور نفسه وتقاسمه بين القوى الأوروبية والاميركية يحول دون قيامه بالدور المطلوب المذكور . لكنه إذا ما تمكنت دولة واحدة من السيطرة عليه يصبح بإمكانها السيطرة على العالم . وسبيكمان يخشى أن تحتل ألمانيا أوروبا الغربية فتسيطر على الإطار . أما الهرتلاند ، فبالرغم من اعترافه بأنه بالحق والحقيقة قلب العالم فإنه يعتبره قلباً ميتاً لأنه حبيس الإطار من جهة والتوندرا و المحيط القطبي من جهة ثانية . هذا بالإضافة الى كونه - الإطار - قليل الثروات ، باستثناء تركستان والأورال ، على اعتبار أن المتبقي منه أراضٍ موحشة جافة مليئة بالغابات المخروطية الباردة على مسافات شاسعة وأراضي الصقيع الدائم[٣٨] .

---

(٣٦) - N. Spykman, American Strategy in World Policy, New-York, 1942

- N. Spykman, the geography of Peace, New-York, 1946.

(٣٧) نقلاً عن د. محمد ريا ، الأصول العامة في الجغرافية السياسية والجيوبوليتكا ، ص ١٠٦ .

(٣٨) المرجع نفسه .

وفي ما ذكرنا الآن بالضبط تتجلى عدم واقعية سبيكمان وبعده عن الإمكانية العملية . فواضح ومعروف أن منطقة الإطار لا يمكن لها أن تكون قوة واحدة . هذا بالإضافة الى كون الإطار ليس سوى نطاق هامشي مهدد من الهرتلاند بالداخل والقوى البحرية الهامشية (off shore) في الخارج وبريطانيا واليابان وشمال افريقيا من مصر الى المغرب . وبالتالي فنجاح قوى الإطار في تكوين وحدة أوروبية غربية رهن بفرض أوروبا المتحدة سلطتها المطلقة على البحر الأبيض المتوسط بأكمله والشرق الأوسط كمقدمة للسيطرة على كامل افريقيا واستراليا ومن ثم الاستيلاء على بقية الإطار في آسيا الجنوبية والشرقية[٣٩] .

فالحقيقة إن أهمية الإطار ليست في إمكان تشكله كقوى موحدة بقدر ما هي في كونه يقع تحت تأثير المنافسة بين القوى الخارجة عنه : أميركا ، اليابان ، بريطانيا والإتحاد السوفييتي . وحتى افريقيا جنوب الصحراء واستراليا هي أيضاً في مجال هذه المنافسة . كما أن دور افريقيا في هذه المنافسة والصراع يزداد وضوحاً مع الوقت . وقد سبق لمكندر أن اعتبر افريقيا الهرتلاند الثاني[٤٠] . لكنها لا تزال مرتبطة بعلاقات سياسية استراتيجية اقتصادية مع دول الإطار .

وبالتالي فبقاء الإطار مقسماً بين العديد من الدول المستقلة أو المحايدة أو الداخلة في فلك دول أخرى يحفظ بقاء توازن القوى العالمية ويحول دون سيطرة قوة واحدة على العالم . هذا بغض النظر عن تفوق الحركة في الإطار للدول مع القوى الداخلية الكبرى كالصين مثلاً على الحركة مع القوى البحرية التي يمكن أن تدعم هذه الدول في الإطار كالولايات المتحدة الاميركية من تدخل القوى الداخلية[٤١] .

الواقع ان الحقيقة ليست ، في نهاية المطاف، في ميكانيكية الهرتلاند والإطار واستحالة فرضية توحيده وما سقنا بهذا الصدد في المتن والهامش من تعليلات ، بل في وجود نظام اقتصادي اجتماعي جديد ـ النظام الإشتراكي ـ وقف في وجه سعي السيطرة العالمية للولايات المتحدة (النظام الرأسمالي) والمقبولة ضمناً من معظم الدول الرأسمالية حفاظاً على بقائها ولو في إطار الدرجة الثانية . نقول هذا بالرغم من التحالف المصلحي الذي حصل مع الإتحاد السوفييتي فترة الحرب العالمية الثانية وكان للقضاء على النازية في ألمانيا ليس إلا . وبهذا الصدد فإن كتابي جان جاك سرفان شرايبر « التحدي الاميركي » و« التحدي العالمي » مرجع بليغ يتحدث بالأرقام والمعطيات العلمية عن أبعاد السيطرة الإقتصادية ـ والتي تستتبعها السيطرة السياسية

---

(٣٩) نقلاً عن د. محمد رياض بتصرف ، الأصول العامة في الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، ص ١٠٦ .

(٤٠) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

(٤١) المرجع نفسه ص ١٠٧ .

حفاظاً عليها ـ للولايات المتحدة الاميركية على أوروبا والعالم ، والمقبولة ضمناً وبتزاحم فيما بين الدول الأوروبية لجذب رأس المال الاميركي اليها . ولا يقف في وجه هذا التحدي الاميركي للولايات المتحدة الاميركية سوى الإتحاد السوفييتي .

كذلك فإن عملية حفظ التوازن العالمي بواسطة الإطار لإستحالة السيطرة عليه فهي كذلك مفعمة بالميكانيكية ولا ترى جوهر ما سلف وذكرنا مباشرة مقروناً بالطبع بالتسلح النووي ، خصوصاً بالنسبة للجبارين ، بحيث تستحيل المواجهة بينهما لأنها تؤدي الى فناء البشرية ودمار العالم . إنما هذه الإستحالة يُنفّس عنها بواسطة الحروب المحلية عبر حركات التحرر الوطني والحروب الأهلية المضادة لها .

أخيراً فيما يعود لتفوق الحركة في الإطار مع القوى الداخلية على الحركة مع القوى البحرية خارجه ، فمزده بشكل عام ، الى المصلحة في التطور للخروج من التخلف ، والتي تتأتى أكثر بكثير من الدول الداخلية الكبرى كالصين (دول اشتراكية) . هذا في حين أن دول الخارج (كالولايات المتحدة وبريطانيا وغيرها من الدول الأوروبية) لا مصلحة لها في إخراج هذه الدول من التخلف ، إلا في حدود معينة (حوار الشمال والجنوب) ، لأن ذلك ضد مصالحها الإقتصادية . يستثنى من ذلك الإتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية .

القوى الجوية في الجيوبوليتكا (ريبر ، دي سيفرسكي)

الواقع ان تطور الطيران المذهل ، مقروناً بولوج الفضاء والإقامة فيه ، أدى الى تطور الآراء وتنوعها فيما يعود للتشكل الجيوبوليتيكي للعالم ، منذ أواسط هذا القرن الحالي وبشكل خاص أواخره التي نعيش .

فجورج رينر (G. Renner) ، في كتابه « السلم بالخارطة »[٤٢] الذي صدر في العام ١٩٤٤ ، أي قبل انتهاء الحرب العالمية الثانية ، يرى أن الطرق الجوية ربطت بين الهرتلاند الأوروآسيوي وهرتلاند أصغر في أميركا الشمالية عبر المنطقة القطبية . وبالتالي فالطيران وتطوره أدى الى تشكيل جديد للهرتلاند امتد في نصف الكرة الشمالي عبر المنطقة القطبية . إنما هذا الهرتلاند الجديد مهدد بالخطر من إحدى القوتين اللتين تحتلانه وهما : الاتحاد السوفييتي والولايات المتحدة . فالأول يهدد بقية الهرتلاند في أميركا والثانية تهدد بقيته في آسيا . على أن رينر يضيف ان الهرتلاند الجديد بإمكانه أن يكون منطلقاً للسيطرة العالمية ، لتميزه بالقرب المكاني من بعضه بواسطة الطيران وإمكانيات النقل البحري والبري أيضاً ، فتتحول بالتالي المنطقة القطبية الشمالية الى بؤرة للحركة تجعلها مفتاح السيطرة العالمي .

---

(٤٢) G. Rennen , Peace by the Map , New-York 1944

في إطار التكرار المتنوع ، الى حد ما ، في نقدنا للمنطق الشكلي الميكانيكي ، نرى في هذه الفكرة الجيوبوليتيكية تعامياً وتحاملاً مبطناً على النظام الإشتراكي الجديد ، بالرغم من التعايش السلمي بين النظامين . والتحامل هنا هو نتيجة لما ذكرنا من تعامٍ . بمعنى آخر استحالة الإتحاد بين الجبارين تعني ، في نهاية المطاف ، بالنسبة لرينر ، ضرورة سيطرة الولايات المتحدة على الإتحاد السوفييتي . وهذا يعني في لغة السياسة تأجيج حدة الحرب الباردة ورفض التعايش والتهيئة لشن حرب عدوانية على الإتحاد السوفييتي ـ حصن الإشتراكية من قبل الولايات المتحدة الاميركية ـ قلعة الرأسمالية . وإذا ما كان ذلك مستحيلاً ، من جراء التسلح النووي، فليكن مع الوقت بالحروب المحلية التي سبقت الإشارة اليها . هذا بغض النظر عما يصرف في الدولتين الكبيرتين من أموال على التسلح بالإمكان ، إذا ما صرفت على العمل السلمي وتغذية الناس ، إنتفاء الجوع في العالم .

أما الكسندر دي سيفرسكي (A. de Seversky) ففي بحث له تحت عنوان « القوة الجوية مفتاح البقاء »[٤٣] نشر في العام ١٩٥٠ ، فقد رسم خريطة ذات مسقط قطبي ، وضع فيها ، الاميركيتين جنوب القطب وأوروآسيا وافريقيا شمال القطب . وبناءً عليه فأول تقسيم للعالم بالنسبة إليه كان التقسيم التقليدي الى العالم القديم والعالم الجديد . ويتضح من هذه الخريطة « المفذلكة » ان السيادة الجوية الاميركية تغطي الاميركيتين في حين السيادة الجوية السوفييتية تغطي جنوب شرق آسيا وافريقيا والصحراء الكبرى .

هذا بالإضافة الى انفلاش القوة الجوية الاميركية على الهرتلاند الأوروآسيوي وبالمقابل القوة الجوية السوفييتية على أميركا الشمالية . كما أن منطقتي النفوذ الجوي المذكورتين تتلاقيان وتتصادمان في مناطق أخرى في أوروبا الغربية وشمال افريقيا والشرق الأوسط .

وبالتالي فهذه المناطق ، حيث يتداخل النفوذ الجوي للدولتين الجبارين هي مناطق الحسم في أي معركة بينهما . وبناءً عليه فالقوة الجوية لها الدور الحاسم في كسب السيطرة على العالم .

مجددا نرى هنا ميكانيكية العلاقة ـ النفوذ وتداخلها ، بحيث أن ما ذكرنا من تعليق ونقد بالنسبة لآراء رينر يصلح هنا بالنسبة لآراء دي سيفرسكي . نقول هذا خصوصاً وأن آراء دي سيفرسكي تكملة لآراء رينر ، مع الإختلاف بينهما في نتيجتين هامتين ، رغم كونهما غير مؤكدتين . فالنتيجة الأولى تكمن في أنها تتأتى عن الخريطة

(٤٣) A.P. de Seversky, Air Power, Key to survival, Simon and Schuster New-York 1950

المصطنعة التي تتنافى مع الواقع الطبيعي (١٠٢) والنتيجة الثانية عن الإرتباط بمبدأ اعتبار السيطرة الجوية موصلة الى السيطرة العالمية . إنما المهم هنا هو أن هذه السيطرة الجوية مستحيلة في عالم اليوم ، خصوصاً فيما بين الجبارين . وذلك من جراء الأسلحة النووية في البر والبحر والجو ، بحيث أن الحرب الشاملة أصبحت مستحيلة واستعيض عنها ، كما ذكرنا أكثر من مرة ، بالحروب المحلية وبواسطة الأسلحة البرية والبحرية والجوية ، حسب الظروف والإمكانيات والعلاقات الإقليمية والدولية للمتصارعين المحليين .

هذا مع الإشارة ، بالمناسبة ، الى أن دي سيفرسكي لا يؤيد الحروب المحلية الصغيرة ، كما حدث في كوريا والهند الصينية ، « لأنها تستنزف قوة الولايات المتحدة الاميركية دون أن تكون ذات أثر ملموس على الإتحاد السوفييتي ، ويرى أن ردع الإعتداء الشيوعي لا يتم إلا إذا شعر بتهديد قوة جوية ضاربة على نطاق واسع »(٤٤) . إنما ليسمح لنا أن نضيف وماذا ستكون النتيجة إذا ما قوبلت القوة الجوية الضاربة على نطاق واسع بمماثل لها أو حتى بدون ذلك بالسلاح الذري ؟

هذا بالإضافة إلى أن البعض يرى أن السلاح الجوي لم يأت ببعد ثالث جديد إنما هو التكملة للسلاح البري والى حد ما البحري ، اللذين بقي لهما دورهما . هذا مع الإشارة الى التغيّر الجذري في الإستراتيجية الحربية من جراء الصواريخ العابرة للقارات ، حيث نعود الى القوى الجوية .

هذا ولا بد قبل إنهاء هذا الفصل من الإستعراض النظري والتلخيص المكثّف لرأي كل من المدرستين اللتين تتصارعان في الموضوع ، بالرغم من السعي للتعايش السلمي بينهما ، على اعتبار أن الحقيقة والكذب يرفضان التعايش ، حتى لو قبل به الناس .

الجيوبوليتكا والمدرستان الماركسية والبورجوازية

الواقع أن الماركسية اللينينية رفضت كلياً ، بل كانت ضد الإعتراف بأي أثر للوسط الطبيعي على حياة الدول والمجتمعات ، كما لم يكن للحتمية الجغرافية مكان في نظامها . هذا والجغرافيون السوفييت ، أمثال «ج. و. سميجونف » وغيره هاجموا الجيوبوليتكا الفاشية وكذلك ممثلي الامبريالية والإستعمار والإستعمار الجديد في الولايات المتحدة الاميركية وانكلترا . كأني بهم يرون في هذه الأشكال الثلاثة الأخيرة امتداداً للجيوبوليتكا أو التطبيق العملي لها حتى لو لم تكن قائمة ، سيما وأن البلدان الامبريالية تعمل بها تحت ستار الجغرافية السياسية .

---

(٤٤) د. محمد عبد الغني سعودي ، الجغرافيا والمشكلات الدولية ، ص ٥٣٤ .

وأما العلماء الاميركان والإنكليز فلم يلقوا بالاً للجيوبوليتكا في البدء ، على أساس أنها ليست بعلم ولا تستحق الدراسة . هذا والجيوبوليتكيون الألمان ومنهم هوسهوفر نفسه ، لم يستلفتوا أنظار الجمهور المتكلم بالإنكليزية ، بالرغم من عملهم الدؤوب خلال فترة عشرين سنة ، إلا على أثر الحرب وفي سنة ١٩٤٠ حيث ظهر العديد من المقالات والتعليقات في الموضوع . وفي سنة ١٩٤٢ تحدثت لا أقل من خمسة كتب عن مصدر وأساس الجيوبوليتكا الألمانية وحلّلتها . وفي سنة ١٩٤٢ ظهر كتاب « الإستراتيجية الاميركية في علم السياسة » لـ « نيقولا ج. سبيكمان » ، الذي وضع نموذجاً جديداً للجيوبوليتكا الاميركية ، التي أصبحت موضة العصر .

فسبيكمان اعتمد نظرية مكندر للعالم الجديد بالإستناد الى خريطة مركزة علمية ، كما وصل الى نتائج مماثلة بالنسبة لإتحاد الجمهوريات الإشتراكية السوفييتية . أما بوبمن فرأى ، بالإستناد الى الإمكانية الجغرافية ، في العامل البشري العنصر الأساسي ، وتصوّر بالتالي الزحف الدائم لما سماه « جبهة الحضارة » ضد الفراغ ، حيث المناطق غير المنتجة ، وضد البربرية ، حيث المجتمعات السيئة التنظيم أو غير المنظمة ، وهذا يشكل ، حسب رأيه ، النصر للإنسان على الطبيعة ، النصر للحضارة . وأما هنتنفتن فبقي على الحتمية الجغرافية واستند الى نظرية للجفاف في تفسير التاريخ .

بالطبع يرمي بوبمن في تنظيره هذا وكذلك هنتنفتن الى تبرير الإستعمار الجديد لبلدان العالم الثالث . فقد لمسنا في الممارسة السياسية العملية نظرية ملء الفراغ هذه وعشناها . هذا مع الإشارة إلى أن التشابه بالشكل من زاوية الجيوبوليتكا ، بالنسبة للإتحاد السوفييتي والولايات المتحدة الاميركية يحمل بالمضمون خلافاً جذرياً ، بالإمكان تلمسه السريع في النتائج لتعامل بلدان العالم الثالث مع كل من الجبارين على مختلف الأصعدة ، لا سيما الإقتصادية ، التي هي جوهر القضية في نهاية المطاف ، وتشكل الأساس الصحيح لبقية الأصعدة ، سواء كان السياسية أم الثقافية .

إنما يبدو لنا أن الحقيقة ليست في الرأي المساق والشائع للموسوعة البريطانية بل في موقف البورجوازيات الأوروبية المائع تجاه النازية والذي أدى الى الصمت الفولاذي ، بحيث بقي لا يسمع بالجيوبوليتكا طيلة عشرين سنة تقريباً ، ولم تفتح الأبواب لها إلا في الأربعينات على أثر الحرب والخطر المداهم لمصالح هذه البورجوازيات الأوروبية . فتغير الموقف على أثر ذلك للفضح ثم للحذر فيما بعد ، سيما لدى الولايات المتحدة الاميركية غير البعيدة عن هذه النظرة إذا ما تذكرنا « شرعة القدر » ، التي ظهرت لديها في القرن التاسع عشر فيما بين ١٨٣٠ و١٨٦٠ وكما مرّ معنا .

هذا وقد امتد نطاق الجيوبوليتكا الطبيعي مؤخراً ليشمل الأبعاد الثلاثة ، نتيجة تطور التكنيك والتكنولوجيا والأخذ بمنجزات العلم الضخمة في الميدان العملي . فقد دخلت في نطاقها المناطق الصحراوية الشاسعة ، لما تحويه من مصادر للطاقة ومواد استراتيجية . كذلك دخل في نطاقها المدى الجوي ، حيث أخذت تسبح السفن الفضائية والأقمار الإصطناعية والصواريخ الخ . . وأيضاً دخل في نطاقها قاع المحيطات والبحار ، الغني بالخامات لدرجة أعطاه رئيس الولايات المتحدة الاميركية « ترومان » الصفة الوطنية وليس الدولية . وهذا يفسر أطماع الولايات المتحدة الاميركية وتبريرها سلفاً للإعتداءات المحتملة ، لأجل النفط بشكل خاص ، وخرقها الأجواء الجوية للبلدان الأخرى .

نتائج الجيوبوليتكا

ظهرت نتائج الجيوبوليتكا أكثر ما يكون في رسم الخرائط ، حيث اعتمدت البساطة للتقريب الى الفهم ، فاستعملت على سبيل المثال الظلال الباهتة والمتكاثفة ، وكذلك الأسهم المشيرة والخطوط العريضة وغير ذلك بالإضافة الى الصور . فأصبحت الخريطة بالتالي سلاحاً قوياً . وقد انتشرت الخرائط التي تشير الى العلاقات المتبادلة فيما بين كل أجزاء العالم أو معظم أجزائه . وهذا يعبر عن « التفكير العالمي » ان جاز التعبير . وقد كان هذا الشكل الوسيلة الانطلاقية لدى هوسهوفر لأجل السيطرة العالمية الناجحة من قبل الألمان . فالقرن العشرون جعل « التفكير العالمي » الأساس لفهم العالم بالنسبة لكل انسان . إنما لا بد من الإشارة الى الفرق بين استعمال هذه العبارة اليوم واستعمالها عند الجيوبوليتكيين .

وأيضاً اليوم لا تستعمل هذه العبارة بنفس القصد ، فالبعض يفكر عالمياً لتلبية حاجات اقتصادية دون التفكير بمصالح الغير ، والبعض الآخر لمساعدة اقتصاد الغير دون نسيان مصلحته في الوقت نفسه . فالولايات المتحدة الاميركية ترمي في تفكيرها العالمي الى السيطرة على العالم لصالح اقتصادها ليس إلا ، في حين أن الإتحاد السوفييتي وباقي البلدان الاشتراكية ترمي الى مساعدة العالم في إطار المنفعة المتبادلة طبعاً وليس لسواد العيون .

لقد أصرّ الجيوبوليتكيون على ضرورة المعرفة المنظمة والمفصّلة عن الأرض المعدّة للإستعمال من قبل الحكومات والدول . وقد قام بهذه المهمة معهد هوسهوفر للجيوبوليتكا في ميونيخ . وقد ظهر العديد من الوكالات المماثلة لهذا المعهد خلال الحرب لدى الدول التي أصبحت في حرب مع ألمانيا ، إنما كانت في مستوى معلوماتها دون الوكالات الألمانية والمعهد الألماني المذكور ، كون هذه الأخيرة كانت على استعداد منذ وقت طويل وممّونة بكل ما تحتاج إليه ، عكس الوكالات التي أشرنا إليها في الدول المتحاربة مع ألمانيا .

ففي أيام السلم ، كما في أيام الحرب ، فإن الدول التي تستورد خيراتها من مختلف أنحاء العالم ، بإمكانها معرفة توزع هذه الخيرات الجغرافي ، لتستفيد منه عند اللزوم ، كما أن الدول تراقب بشكل مستمر المصادر الطبيعية في بلادها . هذا وتزايد السكان المستمر ، وكذلك سرعة النقل والتنقل ، تزيدان الحاجة الملحة والمتنامية الى المعرفة الحديثة عن العالم . فالمسح الجغرافي الذي تقوم به الحكومات ذو فائدة مستمرة وشاملة .

لقد اعتبرت الجيوبوليتكا مفيدة للحرب ، فهي توسع أفق العمليات العسكرية في إتجاهين ، وذلك بإضافتها الإستراتيجية السياسية إلى الإستراتيجية العسكرية ، وبإعدادها المسبق لأقلمة المحارب مع كل وسط طبيعي يتوقع أن يصبح مسرحاً للعمليات الحربية . بالإضافة الى ذلك يفترض في الجيوبوليتكا أن تساعد الحكومات في وضع السياسة الخارجية . إنما يتساءل المرء عما إذا كان هذا المجال افتخاراً من الناحية الإنسانية .

والتخطيط كان أساس الجيوبوليتكا . ففي كل من ألمانيا واليابان استند في حرب الغزو على تقديرات الجيوبوليتكا المخططة لقوة « المحور » وقوة الخصوم . وقد استند في ذلك الى الإختبار القائم على كون الوسط الطبيعي المتاح لأي دولة هو الذي يقرر كيف ستستعمل هذه المساحة ومركزها الإستراتيجي وسكانها وتعاونهم المتبادل . وفي الحرب اتضح لهم أن خصومهم لم يخططوا للحرب إلا الجزء اليسير من إمكاناتهم القابلة للتعبئة . كما بالغوا في عامل الإختبار الذي أشرنا اليه ، على اعتبار أن التقاليد العسكرية في البلدين ـ ألمانيا واليابان ـ المعنيين ليست انعكاساً للواقع الطبيعي بقدر ما هي نتيجة للصراعات المتوالية عبر الزمن . فتخطيطهم كان يستند الى تقدير مسبق وخاطىء للقوة التي كبروها لديهم واستقلوها لدى الخصوم ، وبالتالي فانتصاراتهم دامت حتى تمكن خصومهم من تنظيم وإعادة تصميم امكاناتهم وطاقاتهم لتعبئتها واستعمالها من أجل الحرب بشكل يؤمن هزيمة ألمانيا واليابان ، وقد حصل ذلك بالفعل .

فالتخطيط هو الهدف المنشود هنا إذا كان القصد استخدام الجيوبوليتكا لكل العالم كمجموعة تنتظم . إنما الواقع ان الكلمة استعملت بقصد أن على كل دولة أن تضع سياستها الوطنية ، بعد تقدير وسطها الطبيعي ، كشرط ضروري لا مندوحة عنه ، وذلك لمعرفة مركز قوتها . وهذا المفهوم الذي تبناه البعض معتدل ويختلف عن المفهوم الألماني في الموضوع الذي كان يكثر من استعمال العبارات الطنانة المائعة المعنى والمثقلة بالأخطاء المقصودة . ومع ذلك فالنتيجة النهائية واحدة ، ألا وهي الحرب ومآسيها وخسارتها .

وإذا ما أردنا العودة الى مقارنة الجيوبوليتكا بالجغرافيا السياسية في هذه الخاتمة لموضوع فنثبت كلام لاديس كريستوف (Ladis Kristoff) الذي يقول : « إن الفرق الوحيد بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا هو بؤرة الإهتمام التي يركز عليها الباحثون في كل فرع . فالجغرافيا السياسية تجعل بؤرة اهتماماتها الظاهرات الجغرافية ، وتعطي تفسيرات سياسية ، وتدرس المظاهر السياسية للظاهرات الجغرافية ، بينما تركز الجيوبوليتكا على الظاهرات السياسية وتحاول أن تعطيها تفسيرات جغرافية وتدرس المظاهر الجغرافية لهذه الظاهرات السياسية »(٤٥) .

لا نود التعليق على هذا الكلام الشكلي الذي يعتمد المنطق الميكانيكي في محاولة إيجاد الفرق بين الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا بل ننتقل منه الى ما ورد لدى ولدريدج في الموضوع نفسه ، حيث يقول : « إن الجيوبوليتكا إذا ما فهمت الفهم الصحيح ودرست على منهج متعقل ، فيمكن أن تعتبر بجدارة امتداداً تطبيقياً للجغرافيا السياسية على العلاقات الجغرافية الخارجية للدول » ولن « تكون وهماً وتضليلاً واعتذاراً عن السرقة» كما قال عنها بوين(٤٦) ونؤيد قولته إنما على أنها سرقة دون اعتذار لاستحالة فرضية التعقل فيها .

ومع ذلك ننهي الكلام في هذا الموضوع الشائك الحاد بالملاحظات الأربع التالية للتفريق ولو الشكلي فيما بين الجيوبوليتكا والجغرافيا السياسية .

١ ـ الجيوبوليتكا ترسم خطة لما يجب أن تكون عليه الدولة ، بينما تدرس الجغرافيا السياسية كيان الدولة .

٢ ـ تضع الجيوبوليتكا تصوراً لحالة الدولة في المستقبل ، بينما تضع الجغرافيا السياسية رسم صورة الماضي والحاضر .

٣ ـ الجيوبوليتكا تتسم بالتطور والحركة بينما تميل الجغرافيا السياسية الى الثبات .

٤ ـ تحاول الجيوبوليتكا أن تجعل الجغرافيا وحقائقها في خدمة الدولة ، بينما الجغرافيا السياسية ليست سوى صورة الدولة .

أولاً هناك تناقض ، في المضمون والجوهر ، فيما بين المقدمة ، إن جاز التعبير ، أو الفصل الثالث ، حيث العرض لتاريخ الجغرافيا السياسية والجيوبوليتكا ، وحيث عدم التفريق بينهما لدى د. محمد رياض في كتابه الذي اعتمدنا وخاتمة هذا الفصل

---

(٤٥) نقلاً عن د. محمد عبد الغني سعودي الجغرافيا والمشكلات الدولية ، ص ١٦ .

(٤٦) S.W. Wooldridge, G. East, The Spirit and Purpose of Geography,Hutchinston, London, 1963, p. 122

العاشرة الجيوبوليتكا ، حيث التركيز على التفريق بينهما في أربعة نقاط ممغوطة شبه مكررة . فالواقع أنه لا فرق بين النقطة الأولى والثانية بل هناك تكرار بكلمات متغيرة ، إذ لا فرق بين الخطة والتصور ، طالما كلاهما للمستقبل وبين كيان الدولة الجغرافي وصورة الماضي والحاضر وكذلك صورة الدولة (في النقطة الرابعة) . أما محاولة إضفاء الحركة على الجيوبوليتكا ، فهي حركة بالقوة لا تصبح بالفعل إلا بعد الإعتداء ، وبالتالي نصبح أمام شبه العلم أو حتى الكذب ، على اعتبار أن العلم يبحث عن الحقيقة وليس التبرير المنظّر لما يُراد أن يكون . وأما النقطة الرابعة فهي الجواب على كذب وغش الجيوبوليتكا .

إذن الحقيقة أن الجيوبوليتكا تقوم على بناء فكري خاطىء إن صح اعتبار الإنتقائية البرغماتية بناء فكرياً ، وتستعمل الأسلوب المنمّق المعمي للإقناع بعلمية ما ليس بالعلم في شيء . ولم يفد منها إلّا من كان يريد الحرب فعلاً وعنده الاستعداد لها واستعملها ـ الجيوبوليتكا ـ في الواقع عن وعي كلي لما تحمل من غش وخطأ وحصد في النهاية نتائجها المعاكسة لما كان يرتجى منها . كما أن نظرية الدولة الكائن العضوي ، ذات الحقوق المشروعة في التوسع ، أدت بمن أخذ بها الى الحرب ، إنما دون معرفة كسبها في النهاية . هذا وهناك من العلماء من يرفض ضم كلمة الجيوبوليتكا الى كلمة العلم .

أما العبارة « الجغرافية السياسية التطبيقية » (أنظر الهامش رقم (٢)) فهي الأحق بالدراسات المعمقة القيمة لتطبيق الجغرافيا في الحياة السياسية بشكل عام ومن خارج الزاوية القومية الشوفينية بشكل خاص .